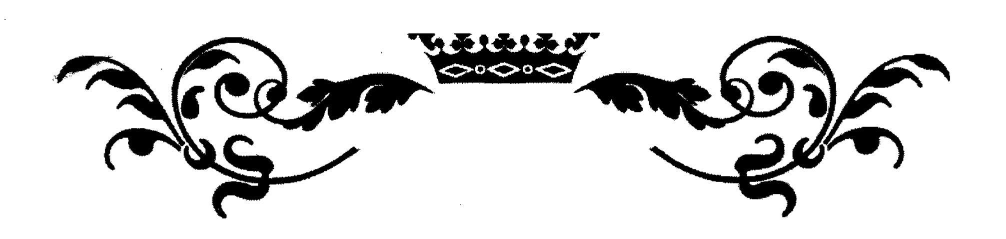


عندما عاهد الرسول ﷺ



دكتور





الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٤٦٦ /٢٠١٢

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السرجاني، راغب
عندما عاهد الرسول ﷺ/ راغب السرجاني، ط١:
القاهرة: شركة أقلام للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٢
(١٩٢) ص، ٢٤ سم تدمك: ٢- ١٤- ٥١٣٧- ٩٧٧- ٩٧٨
١ - السيرة النبوية
أ. العنوان ٢٣٩

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه مَنْ يهدِ الله فهو المهتدي، ومَنْ يُضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا، وبعدُ..

لا شَكَّ أن الرسول ﷺ هو أعظم إنسان في تاريخ البشرية، وأنه تام الخَلْق والخُلُق؛ وكيف لا وقد قال فيه ربه ﷻ: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]، وهذا الفضل له ﷺ في الدنيا والآخرة؛ فقد قال ﷺ عن نفسه: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»(١).

ولقد شهد له الجميع -مسلمون وغير مسلمين- قديمًا وحديثًا بهذه الشهادة، وهي أنه ﷺ أفضل البشر، وأَثْنَوْا على صفاته وأخلاقه ﷺ.

وما من إنسان يُمكن أن يُوضع في مقارنة معه ﷺ؛ فهو السابق في كل الأمور في التقوى والشجاعة، والجود والرحمة، والحلم والتسامح.. وكافة صنوف الأخلاق الحميدة.

ومن أجل هذا فإن الله ﷻ جعله أسوة وقدوة للناس ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فهو في الجود كان ﷺ «**أَجْوَدَ النَّاسِ**»(٢). وفي الإقدام والشجاعة قدوة؛ فعن عَلِيٍّ رضي الله عنه

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٠٩٨٥).

(٢) البخاري: كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، (١٨٠٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح، (٢٣٠٨).

قال: «لَمَّا حَضَرَ الْبَأْسُ يَوْمَ بَدْرٍ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مَا كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ»[١]. وفي الوقت نفسه كان قدوة في الحِلم؛ فهو «يَسْبِقُ حُلْمُهُ جَهْلَهُ، وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا»[٢]. وفي الصدق والأمانة هو الصادق الأمين.

وفي سائر الأخلاق يصفه أصحابه ﷺ بأنه ﷺ «أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًّا، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً[٣]، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ[٤]: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ»[٥].

ولأنه ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا في كل أمر؛ فإنه لم يترك أمرًا من أمور الحياة كبُر أم صغُر إلَّا وأوضح لنا أصول التعامل الصحيح معه؛ لكي تستقيم خطواتنا على سبيل الشرع الإسلامي، ولا تحيد عنه فتزلّ ونهلك؛ يقول ﷺ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ، إِلا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهُ إِلا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ...»[٦].

ولِتَحقُّق الفائدة من الأسوة والقدوة فقد أمرنا الله ﷻ أن نأخذ ما جاء به الرسول ﷺ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٠٤٢)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب فمن رجال أصحاب السنن وهو ثقة. وأبو يعلى (٤١٢)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والبيهقي: السنن الكبرى (١١٠٦٦)، والطبراني: المعجم الكبير (٥١٥٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ٢٤٠.

(٣) العريكة: الطبيعة والنفس؛ والمراد: حُسن الخلق.

(٤) يقول نَاعِتُه؛ أَيْ واصفه عند الْعَجْزِ عن وصفه.

(٥) رواه الترمذي (٣٦٣٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن أبي شيبة: المصنف (٣١٨٠٥).

(٦) رواه البيهقي: السنن الكبرى (١٣٢٢١)، عن المطلب بن حنطب، ومسند الشافعي ص٢٣٣، وقال الألباني: هذا إسناد مرسل حسن. انظر: السلسلة الصحيحة، ٤/ ٤١٧ (١٨٠٣)

وقد عاش الرسول ﷺ بعد نزول الوحي ثلاثًا وعشرين سنة، حدثت فيها جميع أجناس الأعمال التي يمكن أن تقع للإنسان والمجتمع والدولة؛ منها ثلاث عشرة في مكة حيث الكفر مسيطر على الأوضاع، والرسول ﷺ يدعو الناس سرًّا وجهرًا، والصحابة يستخفون بإيمانهم، والرسول ﷺ يُقابل أصنافًا متنوِّعين من البشر؛ منهم مَنْ يرقُّ قلبه لكلام الله، ومنهم مَنْ قلبه كالحجارة، ومنهم المتردِّدُ والخائف والمنتفع الباحث عن السلطة.

دعا الرسول ﷺ الرجال والنساء والأطفال، وواجه ردود أفعال قريش من التكذيب إلى السخرية والاستهزاء إلى التشويش على دعوته، ثم العداء السافر بالاضطهاد والإيذاء له ﷺ والتعذيب لأصحابه ﷺ.

وفي المدينة قام الرسول ﷺ ببناء دولة مختلفة الأعراق والأجناس؛ انطلاقًا من مجتمع حافل بالصراعات والمنافقين.

صاغ الرسول ﷺ دستورًا للدولة، وتعامل مع الدول والقبائل، وراسل الملوك، وخاض الحروب بتوكُّل على الله ﷻ، وتخطيط مُحْكَم وإعداد شامل للقوَّة.

ولم يكن الرسول ﷺ في حياته يحبُّ الحروب أو يشتهيها، وإنما كان يجعلها آخر الدواء؛ ومن ثمَّ حفلت حياته ﷺ بكل ما يمكن أن يمنع الحرب أو يُخَفِّف وتيرتها، وكان من هذه الأمور المعاهدات والاتفاقيات.

لقد عاهد الرسول ﷺ في فترة رسالته كلَّ الطوائف التي يُمكن للمسلمين أن يُعاهدوها مستقبلاً؛ فقد عاهد اليهود والنصارى والمشركين؛ حتى يُعَلِّمَنَا كيف تكون المعاهدات، وما أصولها؛ مثل: كيف نصوغ المعاهدات للحفاظ على مصالح الإسلام والمسلمين، وما التنازلات التي يُمكن تقديمها لإتمام المعاهدة، وما الذي لا يُمكن التنازل عنه، ووجوب الوفاء بالمعاهدات، ومتى يمكن اعتبار المعاهدة ملغاة.

كلُّ هذا علَّمه لنا الرسول ﷺ في سيرته العطرة.

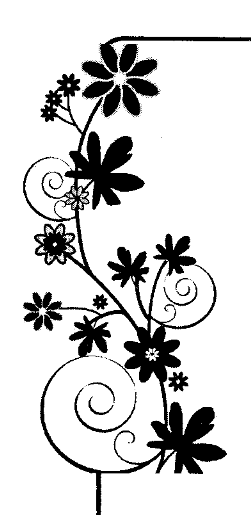
ومن خلال تطوافنا مع الرسول ﷺ في معاهداته سنجد أنه ليس هناك في مجال المعاهدات السياسية في التاريخ والحاضر أرقى من معاهداته ﷺ، ولا أكثر عدلاً وإنصافًا ووفاءً، بل وبِرًّا مع المعاهِدِين.

من هنا وجب علينا أن ندرس معاهدات الرسول ﷺ ليَتَبَيَّن لنا وجه جديد من أنصع وجوه السيرة النبوية -وكلها ناصع- ولنقتديَ برسول الله ﷺ في كل أمور حياتنا كما أمرنا الله تعالى.

أ. د. راغب السرجاني

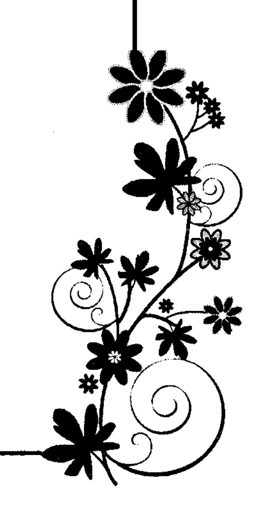
القاهرة في يناير ٢٠١٢م

***



الفصل الأول

وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ



الفصل الأول

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]

يفزع كل من يطالع الجرائد ونشرات الأخبار؛ حيث تطالعه أخبار دامية عن قتال هنا ومذبحة هناك، وصراع عرقي ينهش بلدًا ما، وحربًا عنيفة تطيح بمقدرات عدد من البلدان، على حوادث اغتيال وقتل جماعي!!

إن هناك حالةً من التوتُّر والاحتقان والقلق والغضب أصابت كل بقاع العالم تقريبًا.. تفشَّى الظلم والقهر، وظهر الفساد في البرِّ والبحر، وصار الناس شيعًا وأحزابًا يضرب بعضهم رقاب بعض..

لقد أصبح شعور الكراهية والشك هو المسيطر على العلاقات بين الشعوب بشكل مخيف، بينما كنا ننتظر أن تسود روح التفاهم والوئام خاصة بعد تقدم العلم ووسائل الاتصالات الذي جعل التعارف بين الناس أيسر؛ لقد صارت وسائل الاتصالات تنقل الحقد والكراهية والعنصرية بدلاً من الحب والوئام والتفاهم.

وقد قام البعض بتبني نظريات وتلفيق دراسات ليؤصل بها الكراهية مع الآخرين؛ فأشاعوا أن البشر لابد أن يصطدموا ويتحاربوا، وأن الصراع حتمي سواء بين كل الشعوب أو مع شعب أو حضارة بعينها.

وكان نتيجة ذلك ما نراه من خراب ودمار وقتلى وجرحى بالملايين في أنحاء العالم.. رأيناه في الأرامل والأيتام.. ورأيناه في الجوعى والظمأى والأسرى والمحاصَرين..

يقول هؤلاء: إن السبب في كل هذه الصراعات وذلك الخراب هو الاختلاف بين الشعوب؛ فالعالم يعج بمئات الأعراق والجنسيات والأديان، وفيه عدد هائل من الدول والدويلات والعشائر والقبائل..

والبشر موزعون بين غني وفقير، وقوي وضعيف، ومشتتون بين مذاهب مختلفة؛ فهذا رأسمالي غربي وذاك شيوعي شرقي.

أثرياء في الشمال وفقراء في الجنوب..

فهل هذا هو السبب حقيقة؟!

أنا لا أعتقد هذا؟!

فالاختلاف والتنوع من أجمل ما في الحياة، وهو الذي يمنحها مذاقًا فريدًا تفقده لو كان لونها واحدًا، والناس فيها على شكل واحد.

إن العالم بحضاراته المختلفة، وتنوُّعاته الهائلة، وأعراقه وأجناسه، وأفكاره ولُغاته ليُمَثِّل منظومة رائعة متكاملة، تُعطي ثراءً لا نهاية له، وروعة لا حدَّ لها.. ولو كان البشر كلهم على شاكلة واحدة لعانى الناس من السآمة والملل، والكآبة والإحباط..

إن السبب -كما أراه- يكمن في جهلنا بالآخر؛ فقد قالوا قديمًا: «الإنسان عدوٌّ ما يجهل»..

فالإنسان العاقل عليه أن يحاول التعرف على الآخر، وأن يسعى للتفاهم والتعاون معه بدلاً من الصراع الذي يستنزف طاقة وجهد الطرفين فضلاً عن أنه يكدر عليهم عيشهم ويمنعهم من الاستمتاع بالحياة.

لكن الواقع أن الناس -في معظمهم- يُعادون ما يجهلون، دون بحث ولا

استكشاف، ولا دراسة ولا تنقيب..

والأسوأ من ذلك هو تزييف نظريات وأقوال لوصم شعب من الشعوب أو حضارة من الحضارات بما ليس فيها، ويتم دفع العالم كله ليسير معصوب العينين وراء تلك الادعاءات الزائفة ليرتكب المجازر والمآسي، وهو يظنُّ في نفسه النبل، ويُفسد الأرض ويُدمِّر، وهو يعتقد أنه من المصلحين..

إنه «الجهل» الذي نُعانيه!

وما علاجه؟

كلمة واحدة.. «التعارف»!

إذا تعارفنا أدركنا أن شعوب العالم، وحضارات الأرض، ليسوا كما صَوَّر لنا بعضُ المنحرفين مسخًا مشوَّهًا، أو خَلْقًا «آخر»، إنما هم بشرٌ لهم مشاعر كمشاعرنا، وأحاسيس كأحاسيسنا، ولهم أحلامنا نفسها، وآمالنا ذاتها.. ما يُغضبنا يُغضبهم، وما يُسعدنا يُسعدهم..

بل أكثر من ذلك..

إذا تعارفنا أدرك كلُّ واحد منا احتياجه إلى أخيه الإنسان..

«نحن» نسير في صحراء قاحلة مترامية الأطراف.. أنا أعرف الطريق، وأنت معك الماء! بدوني تتوه وتهلك، وبدونك أظمأ وأهلك!

ألاَ يأتي علينا زمان أضع يدي في يدك فنتجاوز الصحراء المهلكة آمنين؟!

ليس لأحدٍ منَّا فضلٌ على الآخر..

لقد صار التعارف حتمية إنسانية من هذا المنظور..

وما أجمل أن تقرأ الآية القرآنية في ظلِّ هذه المعاني:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣].

***

ونستطيع أن نقتبس من الميراث الإنساني في تحقيق التواصل والتعايش بين الشعوب أسلوب المعاهدات، فهي صورة من الصور التي توصَّلَتْ إليها البشرية في توثيق علاقة بين الشعوب، وهي من أوثق الوسائل في تثبيت وترسيخ علاقة بين شعبين.

والمعاهدة توثيق لما يتمُّ التوصُّل إليه بعد حوار؛ سواء أكان هذا الحوار مبدئيًّا، أم كان بدوره نتيجة حرب ونزاع، وبقدر ما تتحقَّق في الحوار -السابق للمعاهدة- شروط نجاحه، فإنه يُسفر عن معاهدة ناجحة، والعكس بالعكس؛ فالمعاهدة -إذًا- حوار مشدَّد ومُوَثَّق -إن جاز التعبير- يكون الإخلالُ به جريمة تمسُّ بشرف مرتكبها، وتُلحق به ما تستنكره الفطرة الإنسانية من صفات النكث ونقض العهد والإخلال بالمواثيق.

المعاهدات الناجحة

المعاهدة -بحسب القانون الدولي- هي اتفاقٌ أطرافه دولتان أو أكثر، أو غيرها من أشخاص القانون الدولي، وموضوعه تنظيم علاقة من العلاقات التي يحكمها هذا القانون، ويتضمَّن حقوقًا والتزاماتٍ تقع على عاتق أطرافه، ويكون هدفها تنظيم موضوعات تتَّصل بمصالح المجتمع الدولي. كما يُطلق لفظ «معاهدة» على الاتفاقات الدولية ذات الصبغة السياسية؛ كمعاهدات الصداقة والتحالف، ويُطلق لفظ «اتفاقية» على الاتفاقيات المتعدِّدَة الأطراف التي تُنَظِّم التعاون بين الدول[1]،

(١) مجموعة مؤلفين: الموسوعة السياسية ٦/ ٢٣٥، ٢٣٦.

وهي عادةً وثيقة مكتوبة، وقد تكون شفاهة بموافقة ممثِّلي الدول[١].

***

ما أكثر المعاهدات في التاريخ! ولكن ما أقلَّ المعاهدات الناجحة! ذلك أن كثيرًا من المعاهدات إنما كانت صورةً من صور الهيمنة لا التواصل، ونتيجة يفرضها منتصر على مهزوم؛ فهي إملاءُ شروطٍ لا حوار بالمعنى المفهوم للكلمة، وبالتالي كانت المعاهدة تعبيرًا عن قهرٍ يُمارسه القوي على الضعيف؛ ولهذا لم تنجح معاهدة -بهذا الشكل- قطُّ، ذلك أن الضعيفَ ما يلبث أن يقوى، كما أن القويَّ ما يلبث أن يضعف، وحين ينهار ميزان القوَّة بين الطرفين تُصبح المعاهدة القديمة غير معبِّرة عن الواقع، فتُخترق وتُنتهك لحساب معاهدة جديدة.

ليس هذا ما نعنيه في حديثنا عن المعاهدات، وإنما نعني المعاهدات التي تصلح لأن تكون رابطة وثيقة بين أُمَّتين أو شعبين أو دولتين، وهذه المعاهدات -برأينا- يجب أن تتوفَّر فيها ثلاثة شروط كبرى: العدل، الوضوح، الإرادة والقدرة على التنفيذ.

١. العـــــدل:

من البدهي لأيِّ معاهدة تتمُّ بين أطراف غير متكافئة، وتصنع واقعًا يُغَلِّب مصلحة أحد الأطراف على الأطراف الأخرى أن تكون مضطربة قلقة متوتِّرة، مُعَرَّضة إلى الانتهاء عند لحظة تغيُّر ميزان القوَّة.

وأبرز ما يُثبت ضرورة أن تكون المعاهدة عادلة، أنه قد أُلغيت بالفعل المعاهدات التي عُرفت بأنها «غير متكافئة» (Unequivalent Treaties)، وقد أُطلق هذا الاسم على نظام المعاهدات الذي بدأ بهزيمة الصين من بريطانيا، فيما

(١) الموسوعة العربية العالمية «معاهدة».

عُرف بحرب الأفيون (١٨٣٩-١٨٤٢م)؛ فقد عقدت الصين بعد هذه الحرب معاهدة غير متكافئة مع بريطانيا أعقبتها معاهدتان مماثلتان مع الولايات المتحدة وفرنسا، وأهمُّ بنود هذه المعاهدات هي إعطاء امتيازات لرعايا بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا مع حقِّ قنصليات هذه الدول في الصين بمحاكمة رعاياها دون الرجوع إلى السلطات الصينية، وإعفاء صادراتها إلى الصين من التعريفة الجمركية، ثم أُضيفت امتيازات أخرى كثيرة؛ كحقِّ الملاحة الحرَّة في الأنهار الصينية، وحقِّ بناء السكك الحديدية، وإنشاء المؤسَّسات والمصارف المالية، ولقد وصف الصينيون هذه المعاهدات بأنها معاهدات غير متكافئة بسبب الإجحاف والغُبن، اللذين حلاَّ بالصينيين جرَّاء هذه النصوص، ثم ارتبط كثير من الأقطار الشرقية بمعاهدات أخرى غير متكافئة مع دول الاستعمار[1].

ومن المعاهدات غير العادلة -أيضًا- معاهدة السلام الموقَّعة بين مصر والكيان الصهيوني في ١٩٧٩م برعاية أميركية، وبرغم أن هذه المعاهدة قد مرَّ عليها أكثر من ثلاثين عام، فإنها ما زالت على صفيح ساخن، يُصِرُّ عليها السياسيون ولا تقبلها الشعوب.

ومن أبرز أسباب الرفض الشعبي - الذي يُبقي المعاهدة على قلق- ما ورد فيها من بنود؛ منها:

- إلزام مصر باستخدام المطارات التي تركها الصهاينة بعد انسحابهم من سيناء في الأغراض المدنية فقط.
- ألاَّ تتمركز أكثر من فرقة واحدة ميكانيكية أو مشاة من القوَّات المصرية داخل منطقة تبعد قرابة ٥٠ كم شرقي خليج السويس وقناة السويس (أي

(١) مجموعة مؤلفين: الموسوعة السياسية ٦/ ٢٣٥.

١٤٠ كم من الحدود بين مصر والكيان الصهيوني) في حين تتواجد أربع كتائب مشاة صهيونية على بعد أربعة كيلو مترات فقط من الحدود.

- وتتمركز قوّات الأمم المتحدة في الجانب المصري فقط وبعمق ٢٠ إلى ٤٠ كم، في حين يتمركز في الجانب الصهيوني مراقبون من الأمم المتحدة بعمق ٣ كم[١].

هذا بالإضافة إلى ما حدث في خلال هذه الثلاثين سنة من انتهاكات خطيرة للاتفاقية من الجانب الصهيوني.

كما تُعَدُّ اتفاقية أوسلو نموذجًا للاتفاقية التي تجاهلت المطالب الرئيسة والجوهرية وركَّزت على تسوية التفاصيل، بل تفاصيل التفاصيل، وامتلأت نصوصها بـ«الدهاليز» - إن صحَّ التعبير- فهي تذكر بندًا ثم تُحيله إلى بنود أخرى، والبنود الأخرى بدورها تعود إلى أخرى؛ هذا ما يجعلها أشبه بالمتاهة[٢]. ولهذا لم يُفلح الطرفان في تطبيق بنودها أبدًا، وقد تمَّ استبدالها بكثير من الوثائق والاتفاقيات والتفاهمات في مراحل التفاوض المختلفة.

٢. الوضوح:

ثمة مثال مأساوي يمكننا التوقُّف عنده في أمر الوضوح؛ ذلك هو قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) الذي صدر في ٢٢/ ١١/ ١٩٦٧م، بعد قيام دولة الكيان الصهيوني بحرب الخامس من يونيو، والتي استولت فيها على كلِّ فلسطين، وأجزاء من سوريا، وشبه جزيرة سيناء من مصر.

نَصَّ قرارُ مجلس الأمن على:

---

(١) جمال عبد الهادي: الطريق إلى بيت المقدس ٣/ ١٠١ وما بعدها.

(٢) انظر نصَّ الاتفاقية منشورًا على وكالة نبأ: www.islamicnews.net.

«withdrawal of Israel armed forces from territories occupied in the recent conflict»[1].

ومعناها بشكل دقيق «انسحاب قوّات الجيش الصهيوني من أراضٍ محتلّة في النزاع الأخير».

والمعنى في غاية الغموض؛ فهو يتحدَّث عن أراضٍ محتلّة، وليس عن «الأراضي المحتلة»؛ وهذا ما يجعل انسحاب الكيان الصهيوني من أي منطقة احتلّها تنفيذًا للقرار، هذا اللغم اللغوي -لا سيما أنه تُرجم في النسخة العربية بإضافة أداة التعريف- يُستند إليه في الصراع الدبلوماسي المستمرّ حتى الآن.

هذا مع أن ديباجة القرار تُؤَكِّد على:

«The Security Council, expressing its continuing concern with the grave situation in the Middle East, emphasizing the inadmissibility of the acquisition of territory by war and the need to work for a just and lasting peace in which every State in the area can live in security».

وترجمتها: «إن مجلس الأمن إذ يُعرب عن قلقه المستمرّ بشأن الوضع الخطير في الشرق الأوسط، وإذ يُؤَكِّد على عدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالحرب، وضرورة العمل من أجل سلام عادل ودائم، تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش بأمان».

وإن التناقض ليبدو واضحًا بين بند القرار الذي يسمح بالانسحاب من أراضٍ محتلّة، وبين الديباجة التي ترفض عدم شرعية الاستيلاء على الأراضي بالحرب.

ومثل هذا الغموض يبدو -أيضًا- في بعض التوصيفات الواردة في اتفاقيات

(١) نصُّ القرار من أرشيف قرارات مجلس الأمن. على موقع مجلس الأمن الدولي: http://daccess-dds-ny.un.org.

جنيف[١]، وقد طالب رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر بضرورة مراجعة نصوص الاتفاقية للتمييز بوضوح بين المقاتلين وغير المقاتلين، بما أنَّ المواجهات باتت تتعلّق أكثر فأكثر بـ«فاعلين مسلَّحين غير تابعين للدولة» وَفْقًا للنعت الذي تعتمده اللغة الدبلوماسية لوصف هذا النوع من المجموعات المُسلَّحة النَّشطة[٢].

ومثله -أيضًا- يبدو في قرار مجلس الأمن رقم ١٨٣٨ الصادر في ٧/ ١٠/ ٢٠٠٨م، بخصوص القرصنة قبالة السواحل الصومالية، وتحديدًا في البند رقم ٤ الذي ينصُّ على:

«Urges States that have the capacity to do so to cooperate with the TFG in the fight against piracy and armed robbery at sea in conformity with the provisions of resolution 1816 (2008)»[3].

وترجمتها: «ويحثُّ (مجلس الأمن) الدول التي لديها القدرة على القيام بذلك (استخدام القوَّة الحربيَّة) للتعاون مع الحكومة الاتحادية الانتقالية في مكافحة القرصنة والسطو المسلح في البحر وَفقًا لأحكام القرار ١٨١٦ (٢٠٠٨م)».

فهذا النصُّ بصياغته العامَّة الفضفاضة يُتيح لأيِّ دولة مهما كان ابتعادها عن القرن الإفريقي أن تدخل بقوَّاتها إليه تحت عنوان مكافحة القرصنة.

(١) اتفاقيات جنيف: معاهدات دولية أساسية في مجال القانون الإنساني الدولي، إذ تُحدِّد قواعد حماية الأشخاص في حالات النزاع المسلَّح: الجنود والجرحى وأسرى الحرب، والمدنيون وممتلكاتهم. ووُقِّعَتْ أولى اتفاقيات جنيف عام ١٨٦٤م، لكنَّ النصوص السبعة السارية المفعول حاليًا هي معاهدات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م، والبروتوكولان الملحقان بتاريخ ٨ يونيو ١٩٧٧م، والبروتوكول الإضافي الثالث لعام ٢٠٠٥م.

(٢) خبر منشور بوكالة الأنباء السويسرية بتاريخ ١١/ ٨/ ٢٠٠٩م.

(٣) منشور بأرشيف قرارات مجلس الأمن على موقع مجلس الأمن الدولي: http://daccess-dds-ny.un.org.

إذا وُجد الغموض في نصٍّ معاهدة أو اتفاقية، لا سيما إن كانت دولية ويترتَّب عليها تبعات مؤثِّرة، فإنه يكون أوَّل المنافذ التي تُفشل هذه المعاهدة، وحينئذٍ تتحوَّل المعاهدة من كونها وسيلة لتثبيت وترسيخ علاقة تفاهمية تعاونية إلى قنبلة موقوتة، تنتظر لبعض الوقت قبل أن يحدث الانفجار(١).

٣. وجود الإرادة والقدرة على تنفيذها:

إن التاريخ المعاصر -ولا سيما التاريخ العربي- يشهد كثيرًا من المعاهدات التي أُبرمت ثم لم تُنَفَّذ، وهذا ما يجعلها مجرَّد حبر على ورق، ولعلَّ أشهرها معاهدات الدفاع العربي المشترك؛ التي لم تدخل إلى حيِّز التنفيذ على رغم ما تعرَّضت له الدول العربية من تَعَدِّيَات واحتلالات كثيرة ومُؤَثِّرة، حتى إن بعضًا من أهمِّ المدن والعواصم العربية على طول التاريخ قد صارت في يد الاحتلال؛ مثل: القدس وبغداد، ومنذ ١٧ يوليو ١٩٥٠م -تاريخ توقيع معاهدة الدفاع والتعاون الاقتصادي المشترك بين دول الجامعة العربية- بدأت اتفاقيات التعاون العربي؛ لكنَّها -حتى لحظة كتابة هذه السطور- لا تجد مَنْ يُنَفِّذها.

***

لعلَّ من الدلائل الواضحة على أهمية المعاهدات ما أسفرت عنه المسيرة الإنسانية من معاهدات واتفاقيات في كل المجالات، و«يمكن تقسيم المعاهدات إلى عدَّة أنواع، وفقًا لأغراضها»(٢)؛ فمنها:

المعاهدات **السياسية** التي تتعلَّق بالأحلاف بين الدول وتسوية النزاعات، المعاهدات **التجارية** التي تشمل الاتفاقات المتعلِّقة بالرسوم والملاحة ومناطق صيد

(١) آثرنا في هذا الجزء أن نأتي بالنصوص الإنجليزية من مصادرها الأصلية لتوضيح الصيغ اللفظية التي أثارت الغموض.

(٢) الموسوعة العربية العالمية «المعاهدة».

الأسماك والخدمات القنصلية، معاهدات **الاتحاد** التي تنشأ بموجب اتحاد المنظمات الدولية؛ كاتحاد البريد العالمي، معاهدات **تبادل المجرمين** التي تُعالج مسألة المجرمين الهاربين، معاهدات **العدالة المدنية**. تحمي هذه المعاهدات علامات البلد التجارية وحقوق الطبع وبراءات الاختراع في الدول الأجنبية، وتُنَظِّم بعضها حقوق الأجانب، **المعاهدات التي تتعلَّق بالحقوق الدينية** للمجموعات التي تعيش في أقطار أجنبية؛ فبعض الدول تُوَقِّع معاهدات تُجِيز للأجانب ممارسة شعائرهم الدينية بحُرِّيَّة كما يُمارسونها في أوطانهم(١).

وإلى جوار ذلك ثمة معاهدات للتعاون الزراعي والصناعي والقضائي والسياحي والفني، ومعاهدات للتعاون الإقليمي وغير الإقليمي.. وهكذا.

وما زالت الإنسانية تكتشف وتبتكر أنواعًا أخرى من المعاهدات والاتفاقيات، التي تُنَظِّم وتُرَسِّخ العلاقات بين الشعوب على أساس من المصلحة المشتركة وسبيلها التعارف والتواصل والتعاون، وهي مدعوَّة إلى ابتكار المزيد من أنواع المعاهدات؛ فالمعاهدة رابطة وما أحوج البشرية إلى تنمية وإثراء الروابط فيما بينها.

إن عالمًا شديد التشابك والترابط هو عالَم يشهد حروبًا أقلَّ؛ ذلك لأن الحرب في قطر مترابط مع غيره من الأقطار تُلقي بتأثيراتها السلبية على الجميع، ما يجعل من مصلحة الجميع منع اندلاع الحرب أو إيقافها، بعكس ما لو كانت البلاد منعزلة لا ترابط بينها، فهنا لن تجد دافعًا لدى كثيرين لمنع وقوع الصدام.

***

إننا يجب ألا نسعى إلى السلام فقط، ولكن إلى خَلْق بيئة تسمح باستمرار السلام؛ هذا الخَلْق هو احترام المشتركات الإنسانية، وترسيخ هذا الاحترام بشكل

---

(١) الموسوعة العربية العالمية «المعاهدة».

يصنع منه خطًّا أحمر، ويصنع من انتهاكه جريمة ليس لها مبرر.

أمَّا محاولة صُنع سلام مع وجود انتهاكات، فهي حالة لا يمكن أن تستمرَّ، وهو ما أُسميه «تدليس الزعماء»، ويجب علينا ألاَّ نُضيع الوقت في محاولة إقرار المستحيل، فلـن يكـون ثمـة سـلام في فلسـطين يُطالَـب فيـه الفلسـطينيون بـالقبول باغتصـاب أراضيهم وثرواتهم، وبأن تكون دولتهم قِطَعًا ممزقة الأوصـال لـيس لهـا جيش، ولا سيطرة لها على حدودها البرية والبحرية والجويـة، هـذا إذا نحَّيْنَا جانبًا جـوهر هـذه القضية؛ وهو احتلال المسجد الأقصى، الـذي يُمَثِّل عمقًـا دينيًّـا غـائرًا في الوجـدان الإسـلامي، فكيـف إذا كـان هـذا العمـق يُعطـي الأزمـة بُعْـدًا ثـائرًا مـن المقاومـة والجهاد؟!

حتى حالة السلام بين مصر والكيان الصهيوني، وهي التي أكملت حوالي ثلث قرن، ليست إلاَّ حالة سلام قلق مضطرب، لا يُؤْمَن انهيـاره في أيِّ لحظـة؛ ذلـك أنـه يتجاوز عن انتهاكات قائمة، ويُحَاول تجميدها أو نسيانها أو القفـز عليهـا؛ لـذا فهـو سلام على المستوى السياسي فحسب، أمَّا على المستوى الشعبي فثمَّة أمور أخرى!

ومثل هذا يُراد من الأفغان والعراقيين، القبول بوجود أميركي يمتصُّ الثروات ويحكم من وراء الستار، ويتحكَّم بشكل فعلي في مسار ومصير البلاد.

كذلك سيظلُّ التوتُّر قـائمًا بين كـلٍّ مـن ألمانيـا واليابـان وبـين أميركـا؛ إذ فُرِض عليهما البقاء بثروة دون قوَّة، وهذا في الواقع ضدّ الطبيعة الإنسانية؛ لذا سـيظلُّ هـذا الملف مصدر توتُّر شعبي وسياسي وإن كان مكتومًا.

***

ترسيخ ونشر قيمة الاحترام المتبادل..

إنـه لا بُـدَّ للبشريـة لكـي تجد أرضًـا تتوافـق عليهـا أن يُؤْمَن جميـع البشر بـأنهم

متساوون في الحقوق والواجبات، وفي المسئوليات والتكاليف، وإذا كانت الأزمنة القديمة تسمح لبعض الحضارات أن تعيش منعزلة عن المسيرة الإنسانية لابتعاد المسافة، فإن الثورة التقنية الحديثة جعلت أمرًا مثل هذا في عداد المستحيل، لقد أصبح العالم بالفعل قرية صغيرة، وربما أصغر مما يتخيَّل، وصارت المسافة بين الإنسان وأخيه في عالم الهاتف المحمول والإنترنت، أقل بكثير من المسافة بين رجلين في قرية صغيرة في عصر ما قبل هذه الثورة.

هذا التباعد الذي كان قائمًا في الحضارات القديمة يمكن أن يُجيز للناس في هذه العصور ألاَّ يحفلوا بأمر «الاحترام المتبادل» بينهم وبين الآخرين في الحضارات البعيدة، غير أن هذا لم يَعُدْ من الممكن أن يستمرَّ؛ ذلك أن إنسانًا لا يُمكن أن يتعايش مع آخر وبينهما شعور مفقود من «الاحترام المتبادل»؛ ولهذا لا تستطيع العنصريات أن تتعايش مع غيرها أبدًا، كما لا تستقرُّ المجتمعات التي تُمارس التمييز العنصري.

وهذه الحقيقة أدركها الحكماء منذ الأزمنة القديمة؛ ففي التقاليد الصينية التي ترجع إلى خمسمائة عام قبل الميلاد سؤال «جونج – جونج» للمعلم كونفوشيوس عن «الفضيلة الكاملة»، فإذا به يقول: «الفضيلة الكاملة ألاَّ تفعل بغيرك ما لا تحبُّ أن يُفعل بك»(١).

كذلك نجدها في قول الطبيب والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون(٢): «لا تتعامل باللامبالاة مع ما يُهدِّد الآخرين»(٣).

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٥٨.

(٢) موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي (١١٣٥ – ١٢٠٤م): اشتهر عند العرب بالرئيس موسى، وهو فيلسوف يهودي، وُلِدَ في قرطبة ببلاد الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، واستقرَّ في مصر حتى وفاته، وكان طبيبًا وله معرفة واسعة بعلم الفلسفة.

(٣) محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٥٦.

وفي الإنجيل نقرأ في رسالة القديس بولس إلى أهل رومية أنه «لا فرق بين اليهودي واليوناني؛ لأن ربًّا واحدًا للجميع غنيًّا لجميع الذين يدعون به»[(١)].

وفي القرآن الكريم نجد قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. كما تحدَّث النبي ﷺ عن هذا المعنى -أيضًا- فقال: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ -أَوْ قَالَ لِجَارِهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[(٢)].

إنه مبدأ أساسي للأخلاق، كما يقول إريك فروم[(٣)]: ألاَّ تُعامل الغير بما لا تريد أن تُعامَل به؛ فإن ما تفعله من سوء للغير، هو كما لو أنك تفعله لنفسك ولإنسانيتك[(٤)].

من كل ما سبق يتبين لنا أن المعاهدات ضرورة بشرية؛ إذ إن الاختلاف الذي بين الشعوب والأمم يجعل من المستحيل أن يُصبح الجميع شيئًا واحدًا؛ ومن ثَمَّ لزم أن يكون هناك نوع من التواصل المستمرِّ بينهم ليستفيد كلُّ طرف من الآخر، وليأمن كلُّ طرف على نفسه من الآخر، ولن يكون ذلك إلاَّ عن طريق التوثيق في معاهدة، وهو ما دفعنا إلى أن نقول: إن المعاهدات ضرورة بشرية لا مناص من إقرارها.

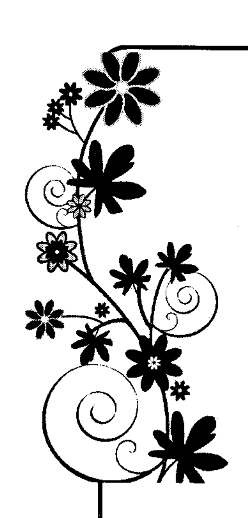
***

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ١٠/ ١٢.

(٢) البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه... (٤٥)، عن أنس بن مالك، واللفظ له.

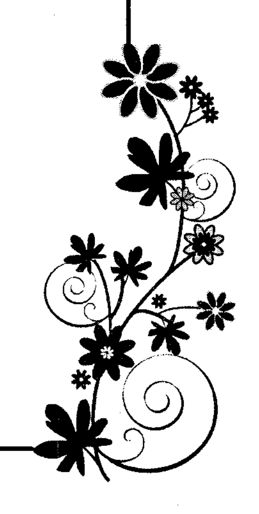
(٣) إريك فروم Erich Fromm (١٩٠٠-١٩٨٠م): عالم نفس وفيلسوف ألماني أميركي، وُلِدَ في مدينة فرانكفورت وهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية، له العديد من المؤلفات أهمها: الخوف من الحرية (١٩٤١م)، المجتمع العاقل (١٩٥٥م)، تشريح نزوع الإنسان إلى التدمير (١٩٧٣م).

(٤) نقلاً عن: محمد سعدي: مستقبل العلاقات الدولية، ص٣٥٦.



الفصل الثاني

المعاهدات في الإسلام



الفصل الثاني
المعاهدات في الإسلام

العهد في اللغة:

العَهْدُ: الأَمَانُ، وَالْيَمِينُ، وَالمَوْثِقُ، وَالذِّمَّةُ، وَالحِفَاظُ، وَالوَصِيَّةُ. وَقَدْ عَهِدْتُ إِلَيْهِ أَيْ أَوْصَيْتُهُ. وَمِنْهُ اشْتُقَّ الْعَهْدُ الَّذِي يُكْتَبُ لِلْوُلاةِ. وَتَقُولُ: عَلَيَّ عَهْدُ الله لأَفْعَلَنَّ كَذَا[1].

وَالْعَهْدُ أَيْضًا: الْوَفَاءُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف: ١٠٢].. أي: من وفاء[2].

تعريف المعاهدة اصطلاحًا:

هي عقد العهد بين الفريقين على شروط يلتزمونها، وهي موادعة المسلمين المشركين سنين معلومة.. وقال الكاساني[3]: «الموادعة وهي المعاهدة، والصلح على ترك القتال، يُقال: توادع الفريقان أي تعاهدًا على أن لا يغزو كل واحد منهما صاحبه»[4].

وقال ابن قدامة: «ومعنى الهدنة أن يعقد لأهل الحرب عقدًا على ترك القتال

---

(١) الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٢/ ٥١٥.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (عهد) ٣/ ٣١١.

(٣) الكاساني: الإمام علاء الدين بن مسعود الحنفي (ت ٥٨٧هـ=١١٩١م)، من أهم مؤلفاته كتابه العظيم في الفقه (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع)، والذي يتميَّز باللغة السهلة، وإيراد شواهد من الحديث الشريف لما يورده من الأحكام الفقهية. انظر: الزركلي: الأعلام ٢/ ٧٠.

(٤) الكاساني: بدائع الصنائع، ٧/ ١٠٨.

مدة، بعوض وبغير عوض.. وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة..»(١).

مشروعية المعاهدات:

الأدلَّة على مشروعية المعاهدات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]؛ فهذا أمرٌ من الله تعالى يُوجب الوفاء بالعهود والمواثيق.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ [النساء: ٩٠]؛ ففي الآية بيانٌ وتقريرٌ بعقد المعاهدة والوفاء بها.

ومن السُّنَّة نجد أمثلةً كثيرة تُؤَكِّد مشروعية المعاهدات في الإسلام منها:

عَقدُه ﷺ الكثير من المعاهدات بينه وبين أعدائه؛ منها: وثيقة المدينة فهي من أنفس العقود وأحقِّها بالنظر والتقدير، وهي تُعَدُّ نبراسًا للمسلمين في أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم، وكذلك صلح الحديبية، وأيضًا موادعته لكثير من القبائل؛ مثل: بني ضَمْرَة(٢)، وبني مُدْلِج(٣)، وكذلك إقراره ﷺ لحلف الفضول في الجاهلية، وقد تمَّ هذا الحلف في بيت عبد الله بن جدعان في مكة. قال ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْت**»(٤).

---

(١) ابن قدامة المقدسي: المغني في الفقه ٩/ ٢٩٦.

(٢) بنو ضمرة: قبيلة من بطون عدنان، تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة، وادعها الرسول ﷺ في صفر سنة (٢هـ).

(٣) بنو مدلج: قبيلة من بطون كنانة في منطقة ينبع وادعها الرسول ﷺ في جمادى الأولى سنة (٢هـ).

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٣٤، ورواه البيهقي في سننه (١٢٨٥٩)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٠٣، وابن كثير: السيرة النبوية، ١/ ٢٥٨، ٢٦١، وقال السهيلي: والأصل في تخصيصه قوله ﷺ: وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ الْيَوْمَ لأَجَبْتُ. يُريد: لو قال قائل من المظلومين: يا لحلف الفضول! لأجبتُ. وذلك أن الإسلام إنما جاء بإقامة الحقِّ ونُصرة المظلومين فلم يزدد به هذا الحلف إلاَّ قوَّة. انظر: الروض الأنف ٢/ ٥٤، وقال ابن الملقن: «أنَّه ﷺ كَانَ فِي حِلْفِ الْفُضُولِ». هذا الحديث صحيح. ثم ذكر الحديث، انظر: البدر المنير ٧/ ٣٢٥.

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قَلَّمَا خَطَبَنَا رسول الله ﷺ إِلَّا قال: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»(١).

ضوابط وشروط المعاهدات في الإسلام

هذا؛ وقد أنشأ الإسلام ضوابطَ وشروطًا للمعاهدات؛ تَضْمَنُ لها أنْ تكونَ مُوافِقَةً للشَّريعةِ وللهدفِ الذي من أَجْله أُجِيزَت.

يقول الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت(٢) رحمه الله: والإسلام حينما يترك للمسلمين الحقَّ في إنشاءِ المعاهدات -لِمَا يَرَوْنَ من أغراض- يشترط في صحَّة المعاهدة شروطًا ثلاثة:

أوَّلها: ألاَّ تمسَّ قانونه الأساسي وشريعته العامَّة، التي بها قِوَامُ الشخصية الإسلامية، وقد جاء في ذلك قوله ﷺ: «**كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ**»(٣). ومعناه أنَّ كتابَ الله يرفضه ويأباه.

ومن هذا الشرط لا يَعْتَرِفُ الإسلامُ بشرعية «معاهدةٍ» تُسْتَبَاحُ بها الشخصية الإسلامية، وتفتحُ للأعداء بابًا يُمَكِّنُهم من الإغارةِ على جهات إسلامية، أو يُضْعِف من شأن المسلمين، بتفريقِ صفوفِهم، وتمزيقِ وَحْدَتهم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٥٨٩)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث حسن. وابن حبان (١٩٤)، وأبو يعلى (٢٨٦٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والبيهقي (١٢٤٧٠)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١/ ٢٧٦، (١٩٤).

(٢) هو الشيخ محمود شلتوت، (١٣١٠- ١٣٨٣هـ=١٨٩٣- ١٩٦٣م): فقيه مفسر مصري، وُلِدَ بالبحيرة، وتخرَّج في الأزهر، عُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة، ثم شيخًا للأزهر (١٩٥٨م) إلى وفاته، من مؤلفاته: (فقه القرآن والسنة)، (مقارنة المذاهب)، (يسألونك)، وهي مجموعة فتاوى، وترجمت له كتب كثيرة لعدة لغات. توفي سنة (١٩٦٣م). انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ١٧٣.

(٣) البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اشترط شروطًا في البيع لا تحلُّ، (٢٠٦٠)، ومسلم: كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤)، وابن ماجه (٢٥٢١) عن عائشة ل واللفظ له.

ثانيها: أنْ تكونَ مبنيةً على التَّراضي من الجانبين؛ ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساسٍ من القهر والغلبة وأزيز «النفَّاثات»، وهذا شرط تُمْلِيهِ طبيعة العقد، وإذا كان عقد التبادل في سلعة ما -بيعًا وشراءً- لا بُدَّ فيه من عنصرِ الرِّضا: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، فكيف بالمعاهدة، وهي للأُمَّة عقدُ حياةٍ أو موتٍ!

ثالثها: أنْ تكونَ المعاهدة بيِّنَةَ الأهدافِ، واضحةَ المعالمِ؛ تُحَدِّدُ الالتزامات والحقوق تحديدًا لا يَدَعُ مجالاً للتأويلِ والتَّخريجِ واللَّعِبِ بالألفاظ، وما أُصِيبت معاهدات الدول المتحضِّرة -الَّتي تزعم أنها تسعى إلى السلم وحقوق الإنسان- بالإخفاقِ والفشلِ، وكان سببًا في النَّكباتِ العالميَّةِ المتتابعة، إلاَّ عن هذا الطريق؛ طريق الغموض والالتواء في صَوْغِ المعاهداتِ وتحديدِ أهدافها، وفي التحذير من مثل هذه المعاهدات يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٤]، والدَّخَلُ هو الغشُّ الخفيُّ يدخل في الشيء فيُفسده[1].

وجوب الوفاء بالعهد

أَكَّدَت الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ على وجوب الوفاء بالعهد؛ ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]، وأيضًا: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥]، والكثير من

(١) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٦، ٤٥٧، وانظر: توفيق علي وهبة: المعاهدات في الإسلام، ص١٠٠، ١٠١.

الآيات يُشير إلى هذا المعنى العظيم.

وأمَّا ما جاء في أحاديثِ الرسول ﷺ فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعُ خِلَالٍ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا**»(١). وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢). وثبت عنه أنَّه قال: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلَّنَّ عَهْدًا، وَلَا يَشُدَّنَّهُ، حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**»(٣). وفي سنن أبي داود(٤) عن رسول الله ﷺ قال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٥).

والفقهاء -وهم يَرَوْنَ أنَّ الجهادَ يكون مع الأمير الصالح والفاسق- يذهب أكثرُهم إلى أنَّ الجهادَ لا يكون مع الأمير الذي لا يلتزم الوفاءَ بالعهود، وعلى خلاف القانون الدولي في الحضارة المعاصرة فإنَّ تَغَيُّرَ الظُّروفِ لا يُبَرِّرُ نكث العهد، حتَّى إذا عجز المسلمون في ظروفٍ مُعَيَّنَةٍ عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات

(١) البخاري: كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

(٢) البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر (٣٠١٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٧٣٥).

(٣) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠) عن عمرو بن عبسة، واللفظ له، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (١٩٤٥٥)، وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح بشاهده. وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٦٤٨٠).

(٤) أبو داود: هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، المشهور بأبي داود (٢٠٢- ٢٧٥هـ)، إمام أهل الحديث في زمانه، وهو صاحب الكتاب المشهور بسنن أبي داود، وُلِدَ في سجستان من بلاد فارس، وتوفي بالبصرة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٢٠٣-٢٢١.

(٥) أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٨٥١١)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٠٧، (٤٤٥).

الطرف الثاني، ومن هذا الباب القصَّة المشهورة عندما سيطر القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح(١) على حمص، وأخذ من أهلها الجزية، ثم اضطر إلى الانسحاب منها فردَّ الجزية التي أخذها من السكَّان، وقال: «إنما رَدَدْنا عليكم أموالَكم، لأنَّه بلغنا ما جُمِعَ لنا من الجموعِ، وأنَّكم قد اشترطتم علينا أنْ نمنعَكم، وإنَّا لا نقدر على ذلك.. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشَّرْطِ وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم»(٢).

والأمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي، فتغيُّر الظروف والمصلحة القومية لا تُبَرِّر في الإسلام نقض العهد، كما لا يُبرِّره أن يرى المسلمون أنفسَهم في مركز القوَّة تجاه الطَّرَف الثاني، وقد ورد النَّصُّ الصَّريحُ في القرآن يُؤَكِّد ذلك؛ فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]، مع الأخذ في الاعتبار بأنَّ ذلك التَّشديدَ على المسلمين بالوفاء بالعهد كان في وقتٍ وفي بيئةٍ لم تَكُنِ القاعدةُ فيهما الوفاء بالعهود(٣).

هذا هو حُكْمُ الإسلام في المعاهدات الَّتي تُوَقِّعُها الدولةُ الإسلاميَّةُ مع الدول الأخرى لحفظ السلام؛ فنحن مطالَبُون بالوفاء بها، والمحافظة عليها، وعدم نقضها، إلاَّ إذا نقضها العدُوُّ، أمَّا إذا لم ينقضها، ولم يُظَاهِرْ على عداء المسلمين، فعلى المسلمين

(١) أبو عبيدة بن الجراح هو: عامر بن عبد الله بن الجراح، من صحابة النبي ﷺ، ومن السابقين الأوَّلين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأمين هذه الأمة، ولاَّه عمر ﷺ قيادة جيش المسلمين في الشام بعد أن تولَّى الخلافة، وتُوُفِّيَ في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة للهجرة. للاستزادة من أخباره انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ١٨٥، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٢١٩).

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٣.

(٣) صالح بن عبد الرحمن الحصين: العلاقات الدولية بين منهج الإسلام والمنهج الحضاري المعاصر، ص٥١.

الوفاء لهم؛ لقوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤].

ويُوَضِّح الشيخ محمود شلتوت رَحِمَهُ اللهُ أن الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يُسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدرًا وخيانة[(١)].

صورة مشرقة من الوفاء

لم يكن خلق الوفاء بالعهد مقتصرًا على المعاهدات التي تعقدها الدولة الإسلامية أو الجماعة المسلمة فحسب؛ بل كان الرسول ﷺ يلُزِم الأفراد بالوفاء بعهودهم التي عقدوها بصفة فردية مع الكفار.

وتعالوا بنا نعش مع هذه الصورة المشرقة من الوفاء في أشدِّ المواقف حرجًا، فعن حذيفة بن اليمان[(٢)] رضي الله عنه قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجتُ أنا وأبي حُسيل[(٣)]، قال: فأخَذَنا كفار قريش، قالوا: إنكم تُريدون محمدًا؟

فقلنا: ما نُريده، ما نُريد إلا المدينة. فأخذوا منَّا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «**انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ**

---

(١) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٧.

(٢) حذيفة بن اليمان: من كبار الصحابة، وقد بعثه رسول الله ﷺ يوم الخندق ينظر إلى قريش فجاءه بخبرهم، معروف بصاحب سرِّ رسول الله ﷺ، شهد أُحُدًا وشهد نهاوند، وكان فتح همذان والري والدينور على يده، ومات سنة ٣٦هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٧٧، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٢٩٠، وابن حجر: الإصابة الترجمة رقم (١٦٤٤).

(٣) حسيل: هو حُسَيل بن جابر بن ربيعة المعروف باليمان العبْسي، والد حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، استشهد في حياة النبي ﷺ وقد وقع ذكره في صحيح مسلم في هذا الموضع، انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٤٠٧، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٥٦٣، وابن حجر: الإصابة الترجمة رقم (١٧١٦)..

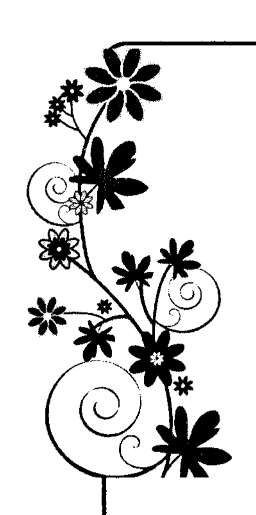
بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»(١).

وبرغم أن هذا العهد عُقِدَ بشكل فردي مع المشركين؛ ومع شدَّة الحاجة إلى هذَيْن المجاهِدَين في معركة بدر؛ فإنَّ الرسول ﷺ قدَّم الوفاء بعهدهما مع المشركين القادِمين لقتاله على مشاركتهما في المعركة؛ وها ما يُظهر بوضوح أهمية الوفاء عند الرسول ﷺ وعند المسلمين.

وبهذا يكون الإسلام قد سبق كلَّ الأمم الأخرى بتشريعاتها في مجال تقنين المعاهدات الدولية؛ بل وتميَّزَ عنها في عدالته وسماحته مع أعدائه، والأهمُّ أنَّ ذلك السبق كان عمليًّا ولم يكن مجرَّد تنظير، ويدلُّ على ذلك ما وَقَّعَه المسلمون من معاهداتٍ مع أعدائهم بداية من عصر الرسول ﷺ مرورًا بعصر الخلفاء الرَّاشدين، ثُمَّ مَنْ بعدهم من عصور إسلامية.

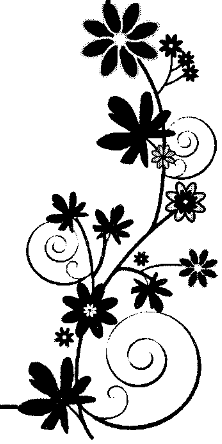
* * *

(١) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٤٠٢)، والحاكم في المستدرك (٤٩٠٨).



الفصل الثالث

معاهدات الرسول ﷺ مع اليهـــــــــود





الفصل الثالث

معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود

تُعتبر معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود سواء في المدينة، أو خارجها صورةً شديدة الأهمية من المعاهدات النبوية؛ وذلك لاتساع دائرة احتكاكهم بدولة الإسلام على عهده ﷺ، وذلك إلى جانب ما انتهت إليه أغلب هذه المعاهدات من غدر الطرف اليهودي؛ برغم اتصال الوفاء النبوي العظيم.. وهذا ما يُعطينا اليوم صورة مشرقة للثبات الأخلاقي عند المسلمين، وعلى رأسهم أسوتهم وقدوتهم رسول الله ﷺ.

ولقد عاهد رسول الله ﷺ الصنفين التاليين من اليهود:

- يهود المدينة.. ومنهم ذوو الأصول العربية، الذين تهوَّدوا بعد اختلاطهم باليهود، كيهود بني عوف وغيرهم، وكلها فروع من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّنْ ورد ذِكْرُ قبائلهم في عهد المدينة الشهير، الذي أبرمه ﷺ معهم عقب هجرته إلى المدينة.. ومنهم القبائل اليهودية الثلاث المشهورة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وقد كان هؤلاء ينتسبون عرقيًّا إلى اليهود.
- يهود خيبر ومَنْ إليهم.. وكانوا بعيدين عن المدينة بثمانين ميلاً، ولم يُعاهدهم الرسول ﷺ إلاَّ بعد أن انتصر على معظمهم في غزوة خيبر مطلع العام السابع الهجري.

ولذلك سوف يتمُّ تناول هذا الموضوع من خلال مبحثين هما:

المبحث الأول: المعاهدات مع يهود المدينة

المبحث الثاني: المعاهدات مع يهود خيبر

* * *

المبحث الأول

المعاهدات مع يهود المدينة

بعد بيعة العقبة الثانية هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة[١]، وكانت القوَّة المسيطرة فيها لليهود، وكان الأوس والخزرج يعرفون قوَّة اليهود وسيطرتهم الاقتصادية والدينية في ذلك الوقت، وقد سلك معهم النبي ﷺ مسلكًا يتماشى مع طبيعة المرحلة التي تمرُّ بها الدولة الإسلامية في تلك الفترة، وعقد معهم معاهدة تضمن لهم حقوقهم وتُعَرِّفهم بواجباتهم في ظلِّ الدولة الإسلامية التي يعيشون في رحابها.

وسوف نتناول هذه المعاهدة -إن شاء الله- من خلال هذه المطالب:

المطلب الأول: إعداد المؤمنين في مكة لحسن معاملة اليهود في المدينة

المطلب الثاني: بنود المعاهدة مع اليهود

المطلب الثالث: وقفات مع المعاهدة

المطلب الرابع: التطبيقات الواقعية للمعاهدة

المطلب الأول: إعداد المؤمنين في مكة لحسن معاملة اليهود في المدينة:

لقد تحدَّث القرآن المكي كثيرًا عن بني إسرائيل قبل أن يعرف المسلمون أنهم سيذهبون إلى المدينة المنورة؛ فماذا قال عنهم؟

لقد ترك القرآن المكي انطباعات إيجابية كثيرة جدًّا عن اليهود:

---

(١) وكانت تُسمَّى «يثرب».

لم يذكر القرآن المكي اليهودَ إلا باسم: «بني إسرائيل»، ولم يتحدَّث عنهم باسم اليهود، فكلمة اليهود هذه كانت قد استُحدثت في بني إسرائيل بعد أن خالفوا الأنبياء كثيرًا؛ لكن الفترة التي كانت قبل المخالفة والتي كانوا فيها أتباعًا للأنبياء؛ موسى عليه السلام ومَن بعدَه من أنبياء الله تعالى كان يُطلق عليهم في القرآن الكريم: بنو إسرائيل.. ومعلوم أن إسرائيل هو نبي الله يعقوب عليه السلام، ونسبة هؤلاء إلى النبي هو تشريف لهم وتعظيم؛ يُؤَدِّي إلى أن ترتفع قيمة بني إسرائيل في قلوب المسلمين.. وقد ذُكِرَتْ كلمة أهل الكتاب في القرآن إحدى وثلاثين مرة؛ منها مرَّة واحدة فقط في القرآن المكي؛ جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. [العنكبوت: ٤٦]؛ أي إنه عندما جاء ذكر اليهود مندرجًا تحت مصطلح أهل الكتاب -الذي يضمُّ اليهود والنصارى- جاء فيها الأمر بالمخاطبة بالتي هي أحسن.

كما تحدَّث ربُّ العالمين في كثير من الآيات عن موسى عليه السلام، وجاء ذكره في القرآن (١٣٦) مرة منها (١٢٢) مرَّة في القرآن المكي، فهو تركيز كبير جدًّا على قصة موسى عليه السلام، وقد جاء معظم الكلام عن قصة نبي الله موسى مع فرعون، وليس عن مخالفات بني إسرائيل الكثيرة، وإن كان ذلك موجودًا على سبيل الإجمال.

وقد ذكر ربُّ العالمين أنه أعطى بني إسرائيل الكثير؛ حتى قال تبارك وتعالى -في القرآن المكي أيضًا-: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، ومدح ربنا تبارك وتعالى في بني إسرائيل صفة الصبر؛ فقال عز وجل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

كل هذه الإشارات أعطت انطباعًا إيجابيًّا للمسلمين عن اليهود: فهم أهل

كتاب، ويُؤمنون بالإله الواحد، ويُؤمنون بالرسل، ويُؤمنون بالكتب السماوية، ويتوقَّعُون ظهور نبي.. ثم إنهم قد تحمَّلُوا الأذى في سبيل الله؛ فمن الطبيعي جدًّا أن يُؤمنوا عندما يسمعون برسول الله ﷺ؛ ومن هنا ترك الله ﷻ هذه الانطباعات الإيجابية لدى المسلمين؛ حتى يُعطيهم الفرصة لكي يتحاوروا ويتناقشوا ويتجادلوا بالتي هي أحسن؛ فيكسبوا قلوب اليهود إلى دين الإسلام، ولا شكَّ أن في هذا نصرًا كبيرًا للدعوة، واستنقاذًا لنفوس كثيرة من النار.

المطلب الثاني: بنود المعاهدة مع اليهود:

سنحاول التعرف على بنود عهده ﷺ مع قبائل اليهود، التي كانت تُساكنه المدينة في أعقاب هجرته الشريفة.. فقد كان مما نصَّت عليه:

١- إن يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم[١].

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النُّصح والنصيحة، والبرَّ دون الإثم.

٥- وإنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

٧- وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(١) حدَّدت المعاهدة أسماء القبائل على اختلافها؛ وذلك لتُصبح ملزمة للجميع، فذكرت يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جُشم وبني ثعلبة.. وغيرهم.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تُجارُ قريشٌ ولا مَنْ نَصَرَهَا.

١١- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم(١).

وقد اختلف العلماء والمؤرخون على هذه الوثيقة ومدى صحَّتها؛ فأثبتها البعض ونفاها آخرون.. وممَّنْ قال بثبوتها: الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله)(٢)، والدكتور محمد حميد الله في كتابه (مجموعة الوثائق السياسية)(٣)، والدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة) حيث قال عنها: ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة(٤).

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله ٣/ ١٧٠- ١٧٥.

(٣) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص٣٩-٤٠.

(٤) أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٧٥، ويُشير الدكتور إبراهيم العلي في كتابه (صحيح السيرة النبوية ص٢٠٠، ٢٠١) أن نصوصًا من هذه الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها أوردها البخاري ومسلم، فهذه النصوص هي من الحديث الصحيح، وقد احتجَّ بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم، كما أن بعضها ورد في مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود وابن ماجه والترمذي، وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة عن الطرق التي وردت منها الوثيقة، كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ فنصوصها مكوَّنة من جمل قصيرة بسيطة وغير معقَّدة التركيب، ويكثر فيها التكرار، وتستعمل كلمات وتعبيرات كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ، ثم قلَّ استعمالها فيما بعدُ؛ حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة، وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فردًا أو جماعة، أو تخصُّ بالإطراء أو الذمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة، ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يُعطيها توثيقًا آخر.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضع أن هذه الوثيقة لم تذكر يهود بني قينقاع ولا يهود بني النضير ولا يهود بني قريظة[١]؛ مع ما صحَّ من وقائع السيرة التي تُثْبِتُ أنه قد تمَّت معهم عهود ومواثيق أخرى غير هذه الوثيقة.

المطلب الثالث: وقفات مع المعاهدة:

لقد كان اليهود أقرب مَنْ يُجاور المسلمين في المدينة، وهم وإن كانوا يُبْطِنون العداوة للمسلمين، إلاَّ أنهم لم يكونوا قد أظهروا أيَّة مقاومة أو خصومة بعدُ؛ فعقد معهم رسول الله ﷺ هذه المعاهدة التي قرَّر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتَّجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة أو الخصام[٢].

إن مواد هذه الوثيقة تُثْبِتُ بما لا يدع مجالاً للشكِّ ما كانت عليه الدولة الإسلامية -وهي في هذه المرحلة الأولى من البناء والتأسيس- من حرية تامَّة، وإفساح للآخرين للمشاركة والمعايشة القائمة على احترامهم، كما يظهر ذلك من خلال القراءة المتأنِّية لبنود هذه الوثيقة، فإن «قبول الآخر»، والتشريع لأجله، ولأجل ما يُنَظِّم حياته بين أفراد المجتمع المسلم، ويحفظ له حقوقه ويردُّ عنه الظلم إن وقع عليه.. كل هذا يستحيل وجوده في مجتمع يقوم على الدكتاتورية والحَجْرِ على الآخرين، أو التضييق عليهم.

لقد كان ذلك العهد الذي أبرمه النبي ﷺ مع اليهود بمثابة أول وثيقة تُوَقِّعها دولة المسلمين مع طائفة أخرى على غير دين الإسلام.. ولكن رباط «المواطنة» يَشدُّها إلى الدولة الإسلامية.

---

(١) ومَنْ ذُكِر في المعاهدة السابقة إنما هم من بطون العرب الذين تهوَّدُوا، أمَّا بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فهم يهود أصليون.

(٢) المباركفوري: الرحيق المختوم ص١٧٣، بتصرف.

وإذا نظرنا إلى بنود المعاهدة إجمالاً وجدناها تحتوي بوضوح على المبادئ الآتية:

أولاً: حرية العقيدة في الإسلام:

يُشير البند الأول من هذه الوثيقة إلى هذا الأمر بوضوح: «**يهود بني عوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. مواليهم وأنفسهم**». وهذه هي القاعدة الأولى؛ ومعناها أن حرية العقيدة في الإسلام حقيقة كبرى: ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ فللمسلمين دين، ولليهود دين.. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن اليهود بموجب هذه الوثيقة يتمتَّعُون بحرية ثقافية وحقوقية كاملة، وأن موقفهم من الناحية الدينية والقانونية التي تُنَظِّم حياتهم الخاصة ثابت لم يتغيَّر، ولهم كامل الحرية في التعبير عن آرائهم في ظلِّ القانون والثقافة التي تحكم مجتمع المدينة في ذلك الوقت.

ثانيًا: استقلال الذمة المالية:

«**وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم**»: أي أن ذمة اليهود المالية مستقلَّة ومحفوظة تمامًا.. بعيدًا عن ذمَّة المسلمين المالية، فليس معنى أننا عاهدناهم، وأن الزعامة والرئاسة في الدولة للمسلمين أن نأخذ حقًّا لهم، أو أن نصادر ممتلكاتهم أو نُؤَمِّمها؛ بل إن لهم حرية التملُّك ما داموا على عهدهم مع المسلمين في داخل الدولة الإسلامية.

ثالثًا: التعاون في حماية الوطن حالة الحرب:

يكون الاستقلال المالي الذي كفله البند السابق في حال السلم؛ أمَّا في وقت الحرب فإن الأمر يتغيَّر، فإذا حدث هجوم على المدينة المنورة فإن الجميع بمقتضى حقِّ المواطنة يُدافع عن المدينة المنورة؛ فما داموا يعيشون معًا في بلد واحد، فإن عليهم التعاون في الدفاع عن هذا البلد لو تعرَّض لعدوان خارجي، وذلك كما يُشير

البند الثالث: «**وإن بينهم النصر على مَنْ حارب أهل هذه الصحيفة**»، ولا يكون هذا التناصر عسكريًّا فقط، وإنما يُنفق اليهود مع المسلمين من أجل الدفاع عن البلد؛ فقد أكَّد البند السابع هذا المعنى: «**وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين**»، ولا يصحُّ أن يُجير أحد من أهل هذه المعاهدة أحدًا من قريش، أو أحدًا نصرها؛ وذلك حفظًا لأمن المدينة من العدوِّ الوحيد الذي يُعلن العداوة لها؛ حيث كانت باقي القبائل على الحياد، وإلى هذا يُشير البند العاشر من الوثيقة: «**وإنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها**»، ويُؤَكِّد البند الحادي عشر -أيضًا- على معاني الوطنية، والمسئولية التي تقع على كاهل كل طرف من الأطراف التي تسكن المدينة؛ وذلك حتى يشعر الجميع أن هذا وطنه، وأنه يجب عليه حمايته: «**وإن بينهم** (أهل هذه الوثيقة) **النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصَّتُهُم من جانبهم الذي قِبَلَهُمْ**».

إن هذه البنود تُؤَيِّد وتُوَضِّح تمامًا أنه لا يُوجد طرف يتميَّز على الآخر، ولا يُوجد طرف يشعر أنه غريب في هذا المجتمع؛ بل إن الجميع -دون استثناء- يشتركون في حماية الوطن والدفاع عنه.

رابعًا: العدل التام:

العدل هو أحد الأسس العظيمة واضحة البصمات في هذه الوثيقة؛ وذلك لأنه أحد مقوِّمات الاستقرار في المجتمعات والشعوب، وبدونه يُصبح الضعيف مغلوبًا على أمره، فاقدًا لحقوقه، بينما يرتع القوي في حقوق الآخرين دون وجه حقٍّ، وقد كانت المجتمعات الجاهلية تقوم على نُصرة القريب؛ سواء كان ظالمًا أو مظلومًا؛ وذلك بدافع العصبيَّة والقَبَلِيَّة، فلمَّا جاء الإسلام هذَّب هذه القاعدة بإقرار نُصرة المظلوم، وجَعْل نُصرة الظالم بالأخذ على يديه ومَنْعِهِ من الظلم؛ ومن ثَمَّ فقد كان أحد البنود في هذه المعاهدة هو: «**وإن النصر للمظلوم**»، وأُطلق هنا لفظ المظلوم ليظهر لنا أحد معالم العظمة الإسلامية في إقرار حقوق الإنسان في هذه الوثيقة؛

فسواءٌ كان المظلوم مسلمًا أو يهوديًّا فإن له النصرة، وعلى ظالمه العقوبة، فلو أن مسلمًا ظَلَم يهوديًّا فإنه يُعَاقَب على هذا الظلم، ويُرَدُّ الحقُّ إلى اليهودي، وكذلك لو ظَلَم يهوديٌّ مسلمًا فإنه يُعَاقَب ويُرَدُّ الحقُّ إلى المسلم.

هذا هو التشريع الإسلامي العظيم الذي يحفظ لكل إنسان حقوقه، دون النظر إلى ما يعتنقه من دين، أو ما يحمله من أفكار، وهذا هو عدل الإسلام وإنسانيته.

وعلى كل طرفٍ أن يتحمَّلَ مسئولية ما يقوم به من أعمال: «**وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه**»، فلو أن إنسانًا ارتكب إثمًا أو خطأً ما متعمِّدًا؛ فإنه وحده يتحمَّل مسئولية عمله كاملة، وليس على حلفائه الذين لم يشاركوه في هذا العمل أدنى مسئولية، وإلا كان هذا مساعدة على انتشار الإثم والبغي، وهذا بخلاف ما إذا كان ما قام به عن طريق الخطأ كالقتل غير المتعمَّد؛ ففي هذه الحالة ومثلها على حلفائه أن يُساعدوه، ويُقَدِّموا له العون؛ كالمشاركة في أداء الدية معه مثلاً، وهذا -أيضًا- من العدل، ومن مقتضيات التحالف.

ومن البنود التي تُؤَكِّد معنى العدل -أيضًا- البند الثاني عشر: «**وإنه لا يَحُولُ هذا الكتاب دون ظالم أو آثم**»، فهذا الدستور ليس ملاذًا للظالمين والآثمين، يحتمون به من المظلومين وأصحاب الحقوق؛ بل على العكس من ذلك فإن هذه الوثيقة تردُّ (بموجب بنودها) الحقوقَ إلى أصحابها.

خامسًا: التعاون والتناصح وحفظ الوطن:

«**وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرَّ دون الإثم**»؛ أي أنه بموجب هذا العهد يكون على الأطراف المتعاهدة التناصح فيما بينها، ويشمل هذا الأمر إسداء النصح للأطراف الأخرى بصدق وإخلاص، وقبول النصيحة منهم، وأن يحمل كلُّ طرفٍ النصائحَ التي يُسديها إليه الآخرون محمَلاً حسنًا، ويُؤَكِّد هذا البند -أيضًا- على أن

بين الأطراف المتعاهدة البرَّ دون الإثم، أي التعامل بالإحسان، والتعاون على الخير فيما بينها، دون التعامل بالسوء.

وإذا كان من مُقَوِّمات حفظ الوطن عدم اندلاع حروب داخلية؛ فإن الوثيقة احتوت -أيضًا- على أحد البنود الذي يُحَرِّم نشوب قتال داخل الوطن: «**وإن يثرب حرام جوفُهَا لأهل هذه الصحيفة**».

سادسًا: مرجعية واحدة:

يُؤَكِّد البند التاسع من الوثيقة هذا المعنى: «**وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ﷻ، وإلى محمد رسول الله ﷺ**»، وهو بند مهمٌّ يكفل توازن العلاقة، ووضوح معالمها بين الدولة الإسلامية ومواطنيها غير المسلمين؛ فمع ما قرَّرته البنود السابقة من حريات وحقوق، إلاَّ أن هذا البند يكشف جانبًا آخر مهمًّا من العلاقة، وهو أن المرجعية القضائية القانونية والفصل في الخصومات إنما يكون كل ذلك إلى شريعة الإسلام، وقضاء الدولة الإسلامية المتمثل حينذاك في رسول الله ﷺ (ما لم يكن الأمر من خصوصيات دينهم).

ولعل اللافت للنظر من استعراض هذه البنود السابقة أن عناية الإسلام بحقوق غير المسلمين كان مسألة مبدئية لا يعمد إليها المسلمون مضطرين أو مهزومين؛ بل هي ركن أصيل من الفقه الإسلامي جاء به الدين الحنيف من اليوم الأول لقيام دولة الإسلام الوليدة، وأن تلك الكفالة التامَّة لحقوق الأقليات غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي أمر واقع من قبل أن يخطر على بال الآخرين تفكيرٌ في مثل هذه المبادئ بقرون طويلة.

كانت هذه هي المعاهدة بين رسول الله ﷺ وبين اليهود العرب من قبيلتي

الأوس والخزرج، أمَّا نصوص المعاهدة مع قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة فليس هناك نسخة محفوظة منها (مع الإقرار الكامل بثبوتها واقعيًّا)، ولا يُوجد نقل صحيح يُشير إلى بنودها التفصيلية، وإن كان الغالب أنها البنود نفسها؛ لأن شواهد التعامل مع يهود تلك القبائل الثلاث بعد ذلك كانت تُشير إلى وجود مثل هذه البنود في معاهداتهم.

المطلب الرابع: التطبيقات الواقعية للمعاهدة:

ويشمل هذا المطلب نقطتين رئيستين؛ هما:

النقطة الأولى: موقف الرسول ﷺ بعد المعاهدة

النقطة الثانية: موقف اليهود بعد المعاهدة

النقطة الأولى: موقف الرسول ﷺ بعد المعاهدة:

لم تكن هذه البنود التي تمَّ استعراضها في السطور الماضية أحلامًا يُحلِّق أصحابها في خيال المثالية؛ وإنما كانت واقعًا تمَّ تطبيقه بشكل عملي، وقد حَرَصَ الرسول ﷺ والمسلمون -رغم ما واجهوه من صعوبات بالغة ومكائد متكرِّرَة- على استمرار تطبيق بنود هذه المعاهدة، وكان التعايش السلمي الآمن مع مَنْ يعيش من اليهود مع الرسول ﷺ والمسلمين هو سمة الحياة داخل المدينة.

وفي السطور القادمة نعرض نماذج لهذه التطبيقات الواقعية والعملية من خلال تعامل الرسول ﷺ والمسلمين مع اليهود؛ وذلك خلال السنوات التي تلت عَقْدَ المعاهدة.

١ - البيع والشراء:

كانت أسواق اليهود في المدينة تمتلئ بالمسلمين الذين يشترون البضائع ويبيعون

أيضًا، وكانت كذلك أسواق المسلمين يشتري فيها اليهود ويبيعون دون أدنى حرج، ومن أشهر أسواق اليهود سوق بني قينقاع، وإتمام عمليات البيع والشراء لا تتمُّ إلاَّ بين قوم يأمن بعضهم بعضًا، وقد كانت المرأة المسلمة تذهب بنفسها لتشتري من اليهود في سوقهم دون حرج؛ مما يدلُّ على مدى ثقة المسلمين باليهود(١).

وكذلك اشترى عثمان بن عفان ﷺ بئر رومة(٢) من يهودي، وتصدَّق بها على المسلمين، وأصبحت هذه البئر من المرافق العامة بالمدينة، وقد كان يمكن أخذها من اليهودي دون مقابل؛ لأن الأمر يصبُّ في مصلحة الوطن الذي يسكن به الجميع، غير أن ذلك لم يقع، بل كان الشراء بالاختيار من صاحب البئر، وكان الاحترام التامُّ لملكيته، وبقاء البئر بيد اليهودي حتى تمَّ الشراء يدلُّ -كذلك- على أن الرسول ﷺ قد أقرَّ اليهود على ما تحت أيديهم، ولم يُجبر أحدًا على التنازل عن ما يملكه؛ وهذا ما يدلُّ على العدل والإنسانية التي يكفلها الإسلام لِمَنْ يعيشون في رحابه، وتحت ظلال دولته.

وقد ورد أن عثمان ﷺ اشترى من اليهودي نصف البئر باثني عشر ألفًا، ثم قال لليهودي: اخترْ إمَّا أن تأخذَها يومًا وآخذَها يومًا، وإمَّا أن تنصب لك عليها دلوًا وأنصب عليها دلوًا. فاختارَ يومًا ويومًا(٣).

وقد كان الرسول ﷺ يشتري من اليهود -أيضًا- فعن عائشة ﵂: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ فَرَهَنَهُ دِرْعَهُ**»(٤).

---

(١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٤٨، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/ ٣٤٣.

(٢) بئر رومة: بئر بأرض بالمدينة بين الجُرف وزِغابة نزلها المشركون عام الخندق، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣/ ١٠٤.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٥/ ٧١٣، ٧١٤.

(٤) البخاري: كتاب البيوع، باب شراء الطعام إلى أجل، (٢٠٨٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر (١٦٠٣).

وفي رَهْن الدرع ليهودي الكثير من المعاني؛ حيث إن صاحب هذا الدرع هو حاكم الدولة الإسلامية، الذي يعيش هذا اليهودي في رحابها، وتزداد عظمة هذا الموقف إذا أسقطناه على واقعنا المعاصر؛ إنه الإسلام العظيم ورسوله الكريم ﷺ.

بل إن الرسول ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ**»(١).

٢ - المخالطة الطبيعية لليهود والمشركين:

كان رسول الله ﷺ يُخالط كلَّ مَنْ يُقيم بالمدينة، مسلمين وغير مسلمين، ويجلس معهم ويُحَدِّثُهُمْ ويُحَدِّثُونه؛ وقد مَرَّ بنا في السيرة النبوية موقف مُعَبِّر، يصف هذه المخالطة، فعن أسامة بن زيد(٢) رضي الله عنهما قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ(٣) تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ(٤)، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرَّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلمَّا غشيت المجلس عجاجة الدَّابَّة(٥) خمَّر عبد الله بن أُبَيٍّ أَنْفَهُ(٦) بِرِدَائِهِ ثم قال: لا تُغَبِّرُوا علينا!

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، (٢٧٥٩)، واللفظ له، والترمذي (١٢١٤)، والنسائي (٦٢٤٧)، وابن ماجه (٢٤٣٨)، وأحمد في مسنده (٣٤٠٩)، وابن حبان (٥٩٣٦).

(٢) هو أسامة بن زيد بن حارثة، الحِبُّ بن الحِبِّ، قاد جيش المسلمين وهو دون الثامنة عشرة من عمره، وكان عمر بن الخطاب يُجِلُّه ويُكرمه، وفضَّله في العطاء على ولده عبد الله بن عمر، وقد اعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان رضي الله عنه، توفي سنة ثمان أو تسع وخمسين. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٧٠، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٩١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٨٩).

(٣) الإكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس.

(٤) قطيفة فدكية: (قطيفة) دثار مخمل، (فدكية): منسوبة إلى فدك، بلدة في شمال المدينة.

(٥) عجاجة الدابة: ما تُثيره أثناء سيرها من ترابٍ ونحوه.

(٦) خمَّر أنفه: أي غطَّاه.

فَسَلَّمَ عليهم النبي ﷺ ثُمَّ وقف فنزل، فَدَعَاهُمْ إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا المَرْءُ(!) لا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كان ما تقول حَقًّا فلا تُؤْذِنَا في مجالسنا، وارجعْ إلى رَحْلِكَ، فَمَنْ جاءك مِنَّا فَاقْصُصْ عليه.

قال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله؛ فاغْشَنَا به في مجالسنا؛ فَإِنَّا نُحِبُّ ذلك. فَاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهود؛ حتى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «**أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ (يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ) قَالَ كَذَا وَكَذَا**».

قال: اعْفُ عنه يا رسول الله وَاصْفَحْ! فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصْطَلَحَ أهل هذه الْبَحْرَةِ[1] على أَنْ يُتَوِّجُوهُ، فَيُعَصِّبُونَهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذلك بالحَقِّ الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، فذلك فعل به ما رَأَيْتَ. فَعَفَا عنه النبي ﷺ»[2].

ومن خلال هذا الموقف تتضح لنا مجموعة من المظاهر التي كانت سائدة في مجتمع المدينة المنورة المكوَّن حينذاك من أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود؛ فهؤلاء هم المسلمون والمشركون عبدة الأوثان واليهود يجلسون في مجلس واحد، يتحدَّثُون ويتناقشون وربما يتسامرون، ويمرُّ عليهم الرسول ﷺ فلا يُنكر على المسلم جلوسه معهم؛ بل ويُلقي ﷺ السلام عليهم، برغم ما سمع من إيذاء عبد الله بن أبيٍّ حين قال: لا تُغَبِّروا علينا. ونزل رسول الله ﷺ بعد أن سلَّم عليهم، فدعاهم إلى الله ﷻ، وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، وما إن انتهى حتى قال عبد الله بن أبي ابن سلول ما قاله من كلام يُسيء إلى رسول الله ﷺ؛ مما أثار عبد الله بن رواحة ﵁؛

(١) البحرة: القرية أو البلد، والمراد به هنا المدينة المنورة.

(٢) البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين (٥٨٩٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨).

حتى تشاتم القوم بالفعل، بل وهمُّوا أن يتقاتلوا، ومن العجيب أن اليهود -مع أنهم ليسوا طرفًا في الأزمة- اشتركوا (كما تقول الرواية) في إثارة الموقف! وعلى الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ حرص على تهدئة الموقف؛ برغم استطاعته النيل ممَّنْ أساء إليه، ثم نراه ﷺ وهو يشكو إلى سعد بن عبادة ﷺ، فيذكر عبد الله بن أبي ابن سلول -برغم إساءته الواضحة- يذكره بكنيته فيقول: «أَبُو حُبَابٍ». وفي هذا ما فيه من جمال التعامل، وحُسن الأدب، وسموِّ الخلق مع المخالفين، ثم يعفو عنه الرسول ﷺ بعدما ذكر له سعد بن عبادة ما ذكر.

٣ - العدل مع اليهود:

روى أبو سعيد الخدري[(١)] ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك! فقال: «مَنْ؟» قال: رجل من الأنصار. قال: «ادْعُوهُ». فقال: «أَضَرَبْتَهُ؟» قال: سمعتُه بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر. قلتُ: أيْ خبيث! على محمد ﷺ؟! فأخذتني غضبة ضربت وجهه. فقال النبي ﷺ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»... الحديث[(٢)].

وفي هذا الموقف الكثير من المعاني: فاليهودي يتحاكم إلى الرسول ﷺ، وما ذلك إلاَّ لأنه على يقين أن الرسول ﷺ سيُعطيه حقَّه كاملاً، والشكوى في حدِّ ذاتها تدلُّ على أن إيذاء أحد من اليهود هو شيء غريب ومستهجن؛ ومن ثَمَّ جاء اليهودي سريعًا ليشكو هذا الذي ضربه، وعلى الفور سأله الرسول ﷺ «مَنْ؟»، فأجابه الرجل: إنه أحد الأنصار. فأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يأتوا به لمعرفة ملابسات

---

(١) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي (١٠ ق. هـ- ٧٤هـ= ٦١٣ - ٦٩٣م) صحابي، كان ملازمًا للنبي ﷺ، وكان من أفقه أحداث الصحابة، وله ١٧٠ حديثًا، توفي في المدينة. انظر: البغوي: معجم الصحابة ٣/ ١٨، وابن حجر: الإصابة ٣/ ٧٨، ٧٩.

(٢) البخاري: كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٤).

هذا الأمر؛ حيث إن اليهودي لم يذكر إلاَّ أن الصحابي قد ضربه على وجهه، ولمَّا جاء الصحابي قصَّ ما حدث، ودون تحامل على اليهودي فيما يقوله؛ نرى أنه استفزاز من قِبَل اليهودي للمسلمين؛ فاليهودي لم يَقُلْ هذا الكلام في مكان عبادته أو في بيته؛ بل يقوله في السوق الذي يكثر فيه المسلمون؛ مما أثار غضب هذا الصحابي فضربه على وجهه، ولم يُوَجِّه الرسول ﷺ اللوم إلى اليهودي الذي جهر بما يُغضب المسلمين، وكاد أن يُحْدِث فتنة؛ ربما تُزهَق بسببها الكثير من الأرواح، مما قد يُهَدِّد أمن المدينة وسلامتها، وقد يُعتبر هذا نقضًا من هذا اليهودي لبنودٍ من المعاهدة الموقَّعة بين الطرفين، والتي تنصُّ على أن يتعاون الجميع في حفظ أمن وطنهم «المدينة»، وأنَّ لكلٍّ دينه الذي يعتنقه، ويجب على الآخرين احترامه وعدم المساس به.

لكنه ﷺ وَجَّه نصيحةً بالغة الأهمية لكل الأطراف ألاَّ يُخَيِّروا بين الأنبياء؛ وذلك حتى يمنع الفتنة فيما بين القوم، حتى لا يتكرَّر ما حدث مرَّة أخرى.

ولو كان لليهودي أيُّ حقٍّ لردَّه الرسول ﷺ إليه، دون مجاملة لأحد، فإن بنود المعاهدة تنصُّ على أن النصرة للمظلوم.

لأنه ﷺ يذهب بنفسه -في موقف آخر- إلى أحد اليهود مستشفعًا لجابر بن عبد الله بن حرام[١] رضي الله عنهما، وهو من الصحابة الكرام الذين حضروا بيعة العقبة الثانية في طفولته[٢] مع أبيه «عبد الله بن حرام» رضي الله عنه[٣]، وشهد المشاهد كلها ابتداءً من أُحُد أو

(١) جابر بن عبد الله بن حرام، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير، وشهد مع النبي ﷺ ثماني عشرة غزوة، وكان من المكثرين الحفاظ للسنن. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٩٢، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٥١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٢٢).

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٤١.

(٣) عبد الله بن حرام السلمي الأنصاري، كان نقيبًا وشهد العقبة ثم بدرًا، وكان أول قتيل من المسلمين يوم أحد، ودُفِنَ هو وعمرو بن الجموح في قبر واحد. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٨٤، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٨٣٦).

التي بعدها[١]، يذهب مستمهلاً اليهودي، ليُؤَجِّل سداد الدَّيْن، ولَمَّا أبى اليهودي قبول الشفاعة كان لا بُدَّ من السداد، فما دام هناك حقٌّ فلا بُدَّ أن يُردَّ إلى أهله، يروي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيقول: كان بالمدينة يهوديٌّ، وكان يسلفني في تمري إلى الجِداد[٢] -وكانت لجابرٍ الأرض الَّتي بطريق رومة- فجلستُ، فخلا عامًا، فجاءني اليهوديُّ عند الجِداد، ولم أجدَّ منها شيئًا، فجعلتُ أستنظره إلى قابلٍ[٣] فيأبى، فأُخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ، فقال لأصحابه: «**امْشُوا نَسْتَنْظِرْ لِجَابِرٍ مِنَ الْيَهُودِيِّ**».

فجاءوني في نخلي، فجعل النبي ﷺ يُكلِّم اليهوديَّ، فيقول: أبا القاسم، لا أنظره.

فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ ذلك قام فطاف في النخل، ثمَّ جاءه فكلَّمه فأبى، فقمتُ فجئتُ بقليل رطبٍ فوضعته بين يدي النَّبيِّ ﷺ، فأكل ثمَّ قال: «**أَيْنَ عَرِيشُكَ[٤] يَا جَابِرُ؟**» فأخبرتُه، فقال: «**افْرُشْ لِي فِيهِ**». فَفَرَشْتُهُ، فدخل فرقد ثمَّ استيقظ، فجئته بقبضةٍ أخرى، فأكل منها ثمَّ قام فكلَّم اليهوديَّ فأبى عليه، فقام في الرِّطاب في النَّخل الثَّانية ثمَّ قال: «**يَا جَابِرُ، جُدَّ[٥] وَاقْضِ**». فوقف في الجداد فجددت منها ما قضيته، وفضل منه، فخرجت حتى جئت النَّبيَّ ﷺ فبشَّرته، فقال: «**أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**»[٦].

فهذه قصة عجيبة يستدين فيها جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من يهودي، فيأتي ميعاد سداد الدين، وليس مع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ما يقضي به دَينه، فجعل يطلب من

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٤١.
(٢) الجداد: زمن قطع النخل.
(٣) أستنظره إلى قابل: أي أستمهله إلى عام ثانٍ.
(٤) عريشك: أي المكان الذي اتخذته في البستان، لتستظلَّ به وتقيل فيه.
(٥) جدَّ: أي اقطع ثمرتها.
(٦) البخاري: كتاب الأطعمة، باب الرطب والتمر (٥١٢٨).

اليهودي أن يُؤَخِّره عامًا حتى يستطيع السداد -وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من الفقراء المدينين- لكنَّ اليهودي أَبَى وأصرَّ على أن يأخذ دَينه في موعده، فأخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما رسولَ الله ﷺ بالأمر، وطلب منه أن يتوسَّط بينه وبين اليهودي، وقام رسول الله ﷺ بالفعل، بل أخذ معه بعضًا من أصحابه، وذهب إلى اليهودي يستشفع لجابر، فيقول جابر رضي الله عنه: فجعل رسول الله ﷺ يُكَلِّم اليهودي. أي أنه أكثر في الكلام والاستشفاع عنده، لكنَّ اليهودي رفض بكل وسيلة، وكان مُصِرًّا على قوله: أبا القاسم؛ لا أنظره.

هذا موقف يقع فيه أحد الأصدقاء المُقَرَّبِينَ إلى قلب مَنْ يحكم المدينة المنورة بكاملها في أزمة مع أحد رعايا هذه المدينة وهو اليهودي، إنه يُريد تأجيل سداد الدين؛ وليس المماطلة فيه أو التغاضي عنه، والرسول ﷺ بنفسه يستشفع له، ولكنَّ اليهودي يرفض، ومع ذلك لم يُجبر زعيم الأُمَّة الإسلامية وقائد المسلمين ورسول ربِّ العالمين ﷺ ذلك اليهوديَّ أو يُكْرِهْهُ على قبول استشفاعه!

لم ينظر رسول الله ﷺ هنا إلى صورته التي قد يستضعفها المراقبون والمحلِّلُون للموقف، ولم ينظر إلى حبِّه لجابر بن عبد الله وقُرْبِهِ من قلبه، ولم ينظر إلى تاريخ اليهود العدائي مع المسلمين؛ لم ينظر إلى كل هذه الاعتبارات ولا إلى غيرها، إنما نظر فقط إلى إقامة العدل في أسمى صوره.

إن الحقَّ مع اليهودي، والسداد واجب، والاستشفاع مرفوض من صاحب الحقِّ، فليكن السداد، وليكن الإنصاف لليهودي غير المسلم، ولو كان من صحابي جليل وابن صحابيٍّ جليلٍ.

إنَّ هذا هو الإسلام حقًّا..

لم يكن هذا تَكَلُّفًا من الرسول ﷺ، ولا تَجَمُّلاً منه؛ إنما كان التطبيق الطبيعي

لقواعد الدين؛ يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء: ١٣٥].

إن الشفقة على جابر لفقره لم تكن مبرِّرًا للحكم له ضدَّ اليهودي؛ يقول الشوكاني(١) في فتح القدير في تفسير هذه الآية ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾: «إن يكن المشهود عليه غنيًّا فلا يُراعى لأجل غناه؛ استجلابًا لنفعه أو استدفاعًا لضره؛ فيترك الشهادة عليه، أو فقيرًا فلا يُراعَى لأجل فقره؛ رحمةً له وإشفاقًا عليه، فيترك الشهادة عليه»(٢).

وهناك ما حدث عندما سرق رجل من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أُبيرق بن ظفر بن الحارث، وكان اسمه في رواية: «طعمة بن أُبيرق»، وفي رواية أخرى: «بشير بن أُبيرق»، وكان هذا الرجل قد سرق درعًا من جارٍ له مسلم يقال له: «قتادة بن النعمان»، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: «زيد بن السمين»، فالتُمِسَتِ الدرع عند «طعمة» فحلف بالله ما أخذها، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق في داخل داره. فلمّا حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجدوا الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة بن أُبيرق! فجاء بنو ظفر -وهم قوم طعمة- إلى رسول الله ﷺ، وسألوه أن يجادل عن

(١) الشوكاني: هو محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ - ١٢٥٥هـ)، نشأ باليمن، وتعلم النحو والصرف والتفسير والفقه، وصار مشارًا إليه في علوم الاجتهاد بالبنان، من مؤلفاته: نيل الأوطار، وفتح القدير. انظر: القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ٢٠١.

(٢) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١/ ٦٠٤.

صاحبهم، فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات من سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠٥-١١٢][(١)].

لقد اعتقد رسول الله ﷺ أن السارق هو اليهودي لوجود القرائن ضدَّه، ولكنَّ الوحي نزل بخلاف ذلك؛ فلم يكتم ﷺ شيئًا -وحاشاه- بل قام وأعلن بوضوح وصراحة أن اليهودي بريء، وأن السارق مسلم!

وليس الأمر هَيِّنًا!

إن التبرئة تأتي في حقِّ يهودي اجتمع قومه من اليهود على تكذيب الإسلام والكيد له، والطعن في رسوله ﷺ، وبثِّ الفرقة بين أتباعه.. ومع ذلك فكلُّ هذه السلبيات والخلفيات لا تُبَرِّر اتهام يهودي بغير حقٍّ.

وهذا الاتهام في حقِّ رجل مسلم من إحدى قبائل الأنصار، وما أدراك مَنْ هم الأنصار! هم الذين آوَوْا ونصروا، وهم كَرِشُ الرسول ﷺ وعيبته[(٢)]، وهم أهل دار

---

(١) الترمذي (٣٠٣٦) عن قتادة بن النعمان، والحاكم (٨١٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه. والطبراني: المعجم الكبير (١٥٦٨٦).

(٢) هو من قوله ﷺ: كرشي وعيبتي: أي بطانتي وخاصتي. قال القزاز: ضرب المثل بالكرش؛ لأنه مستقرُّ غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرش منثورة؛ أي: عيال كثيرة. والعَيْبَة: ما يُحْرِزُ فيه الرجلُ نفيس ما عنده، يُريد أنهم موضع سرِّه وأمانته. قال ابن دريد: هذا من كلامه ﷺ الموجز الذي لم يُسْبَقْ إليه. وقال غيره: الكرش بمنزلة المعدة للإنسان، والعيبة مستودع الثياب، والأول أمر باطن والثاني أمر ظاهر؛ فكأنه ﷺ ضرب المثل بهما في إرادة اختصاصهم بأموره الباطنة والظاهرة، والأول أولى، وكلا الأمرين مستودع لما يُخْفَى فيه. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ١٢١.

الإسلام، وعلى أكتافهم قامت الدولة الإسلامية، ولكن كلّ هذا ليس مبررًا لتبرئة سارقٍ منهم، ولو كان على حساب يهودي.

إضافةً إلى أن هذا الموقف قد يُعطي مساحة جديدة لليهود يُكيلون فيها التُّهم والادعاءات للمسلمين: فها هم المسلمون يسرقون، وها هم يرمون الأبرياء بالتهم، وها هم يجتمعون على نصرة ظالم، وها هم يَكْذِبُون. إنها مساحة واسعة قد أُتيحت لليهود؛ ليُواصلوا طعنهم في جسد الأُمَّة الإسلامية.

برغم هذه الخلفيات، كان لا بُدَّ من إحقاق الحقِّ وإقامة العدل.

إن الأمر لم يكن مجرَّد تبرئة رجل وإدانة آخر، «إنما كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة؛ لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية، وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض، ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوِّق على كل ما تعرف البشرية، ويَثْبُتَ هذا المنهج في حياتها الواقعية، ويُمَحِّصَ كيانُها تمحيصًا شديدًا، وتُنْفَضَ عنه كلُّ خبيئة من ضعف البشر، ومن رواسب الجاهلية، وليُقام فيها ميزان العدل -لتحكم به بين الناس- مجرَّدًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرون على تجاهله!»[1].

ونتساءل من جديد -وسيكثر هذا التساؤل- هل هناك مثل هذه المواقف في تاريخ أُمَّة غير أُمَّة الإسلام؟! هل بلغ أيُّ قائد من قوَّاد الأرض مثلما بلغ رسولنا ﷺ من التجرُّد للحقِّ، وإظهار العدل وتطبيقه، ومن السماحة والأمانة في التعامل مع غير أتباع دينه؟!

ومن الجدير بالذكر في القصة السابقة أن نذكر أن هذا المسلم الذي قام بالسرقة

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٣.

-واتَّهم بها اليهودي- كان من المنافقين الذين ظهر نفاقهم وتأكَّد بعد هذه الحادثة، وهذا واضح فيما رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيتٍ منَّا يُقال لهم بنو أُبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا. فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلاَّ هذا الخبيث -أو كما قال الرجل- وقالوا: ابن الأُبيرق قالها. قال: وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقَدِمَت ضافطة من الشام من الدرمك[1] ابتاع الرجل منها، فخصَّ بها نفسه وأمَّا العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مَشْربة[2] له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فعُدي عليه من تحت البيت؛ فنُقبت المشربة وأُخذ الطعام والسلاح، فلمَّا أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي؛ إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ونُقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا. فتحسَّسْنَا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلاَّ على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا -ونحن نسأل في الدار-: والله ما نرى صاحبكم إلاَّ لبيد بن سهل -رجلاً مِنَّا له صلاح وإسلام- فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟! فوالله ليُخالطنكم هذا السيف أو لتبيِنُنَّ هذه السرقة. قالوا: إليك عنها أيها الرجل، فما أنت بصاحبها.

---

(١) ضَافِطَة من الدَّرْمَك: الضَّـافِطُ: الذي يَجْلِبُ الطعام والمتاع إلى المُدُن، وهو المُكارِي الذي يُكْرِي الأَحْمَال، وكانوا يومئذٍ قومًا من الأنباط يَحْمِلُون إلى المدينة الدَّقيق والزيت. والدرمك: هو الدقيق الأبيض. والمقصود: بضاعة من الشام فيها هذا النوع من الدقيق. انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٠١.

(٢) المشربة: الغرفة.

فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيتَ رسول الله ﷺ فذكرتَ ذلك له. قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: إن أهل بيت مِنَّا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليرُدُّوا علينا سلاحنا، فأمَّا الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: «سَآمُرُ فِي ذَلِكَ». فلمَّا سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يُقال له: أسير بن عروة فكَلَّمُوه في ذلك؛ فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله؛ إنَّ قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت مِنَّا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيتُ رسول الله ﷺ فكَلَّمْتُه، فقال: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلاَمٌ وَصَلاَحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ». قال: فرجعتُ ولوددتُ أني خرجتُ من بعض مالي ولم أُكَلِّم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي؛ ما صنعتَ؟ فأخبرتُه بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

فلمَّا نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردَّه إلى رفاعة، فقال قتادة: لَمَّا أتيتُ عمِّي بالسلاح وكان شيخًا قد عمي أو عشي في الجاهلية، وكنتُ أرى إسلامه مدخولاً، فلمَّا أتيتُه بالسلاح قال: يا ابن أخي؛ هو في سبيل الله. فعرفتُ أن إسلامه كان صحيحًا؛ فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سُلاَفَة بنت سعد فأنزل الله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٥، ١١٦]. فلمَّا نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت: أهديتَ لي شعرَ

حسان؟! ما كنتَ تأتيني بخير[١]. بل إنه -في بعض الروايات- هرب إلى مكة مرتدًّا، ومات بها[٢].

وإذا كان هذا الحكم العادل قد جاء في حقِّ اليهودي على حساب مسلم ضعيف الإيمان مذبذب العقيدة، فإنَّ هذا الحكم لم يصدر لشكٍّ في إيمان المسلم وعقيدته، بل كان سيصدر مهما كان المخطئ؛ لأن الشريعة لا تُحابي أحدًا، والرسول ﷺ لا يجامل أصحابه ومعارفه.

وهذه صورة أخرى مشرقة من عدل الإسلام، وإنسانية الرسول ﷺ الرائعة، وتطبيقٌ واقعيٌّ رائع، نرى كل ذلك من خلال هذا الموقف الذي يُؤَكِّد ما ذكرناه من تعاملٍ أخلاقيٍّ راقٍ وصل إليه المجتمع المسلم على يد الرسول ﷺ من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية ومبادئها السامية.

فعن ابن أبي حَدْرَدٍ الأَسْلَمِيِّ[٣] أنَّه كان ليهوديٍّ عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه، فقال: يا محمَّد؛ إنَّ لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها.

فقال: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**».

قال: والذي بعثك بالحقِّ، ما أقدر عليها.

قال: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**».

(١) الترمذي (٣٠٣٦)، وقال: حديث غريب. والحاكم (٨١٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٩/ ٢٠٥، والرازي: مفاتيح الغيب، ١١/ ٢١١، ٢١٨.

(٣) هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، واسم أبي حدرد سلامة بن عمير بن أبي سلامة من هوازن، له ولأبيه صحبة، وأول مشاهده الحديبية وخيبر وما بعدهما، بعثه رسول الله ﷺ عينًا إلى مالك بن عوف النصري، مات سنة ٧١هـ وله إحدى وثمانون سنة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢١١-٢١٣، وابن حجر: الإصابة ٤/ ٥٤-٥٦.

قال: والَّذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قد أَخْبَرْتُهُ أنَّك تبعثنا إلى خيبر، فأرجو أن تُغْنِمَنَا شيئًا فأرجع فَأَقْضِيهِ.

قال: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**».

قال: وكان النَّبيُّ ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يُرَاجَعْ. فخرج به ابن أبي حدردٍ إلى السوق، وعلى رأسه عصابةٌ وهو مُتَّزِرٌ بِبُرْدٍ، فنزع العمامة عن رأسه فاتَّزر بها، ونزع الْبُرْدَةَ، فقال: اشْتَرِ منِّي هذه الْبُرْدَةَ. فباعها منه بأربعة الدَّراهم، فمرَّت عجوزٌ فقالت: ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ؟! فأخبرها، فقالت: ها دونك هذا. بِبُرْدٍ عليها طَرَحَتْهُ عليه[1].

وهذا في الواقع موقف رائع حقًّا من رسول الله ﷺ؛ فهو لا يُحابي أحدًا -مهما كان- على حساب الحقِّ، والحقُّ هنا ليهودي، ويأبى الرسول ﷺ كلَّ ما ذكره الصحابي من أسبابٍ لعدم السداد؛ هي في حقيقة الأمر واقعية وصادقة، لكن لا بُدَّ من وصول الحقِّ إلى صاحبه، مهما كلَّف هذا الأمر مَنْ عليه الحقُّ، ولم يتعدَّ الرسول ﷺ كلمتين اثنين فيهما الأمر بالسداد: «**أَعْطِهِ حَقَّهُ**». وكرَّر ذلك ثلاث مرات؛ ليقطع الجدال في الأمر، ولم يكن أمام الصحابي الفقير الذي لا يجد ما يسدُّ دَيْنَهُ إلاَّ أن اضطُرَّ إلى بيع بعض ما يلبسه، فباع بُردته التي يرتديها سدادًا للدين، وردًّا للحقِّ إلى صاحبه اليهودي.

إن دِينًا هذه أخلاق أتباعه لجديرٌ بالتفكُّر والتدبُّر في شأنه، وإنَّ نفوسًا تستطيع أن تقهر كل العوائق لتُوجِد على أرضِ الواقعِ هذه المبادئَ والقيمَ لجديرة بقيادة العالم كله.

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (٤٥١٢)، وكذلك في الصغير (٦٥٥)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني في الصغير، والأوسط، ورجاله ثقات إلاَّ أن محمد بن أبي يحيى لم أجد له رواية عن الصحابة فيكون مرسلاً صحيحًا. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٤/ ١٣٠، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٢١٠٨).

٤ – التواصل معهم في أزماتهم:

لقد كانت العلاقة بينه ﷺ وبين المخالفين له أعلى بكثير من مجرَّد علاقة سلام ووئام؛ إنها كانت علاقة «بِرٍّ» بكلِّ معاني الكلمة.

ونحن لا نخالف الحقيقة إذا قلنا: إن رسول الله ﷺ كان يُعامل غير المسلمين المحيطين به معاملة الرجل لأهله، فها هو أنس رضي الله عنه يروي موقفًا عجيبًا من مواقف رسول الله ﷺ فيقول: كان غلام يهودي يَخدُم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يَعُودُهُ، فقعد عند رأسه فقال له: «**أَسْلِمْ**». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم. فأسلم، فخرج النبي ﷺ يقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

وتدبَّر جيدًا بعقلك وقلبك!

هذا رسول الله ﷺ يستعمل غلامًا يهوديًّا في الخدمة، ولا يمتنع عن ذلك؛ ليجعل الحياة مع أصحاب الديانات الأخرى في داخل المدينة المنورة حياة طبيعية، ثم يمرض هذا الغلام، فيذهب رسول الله ﷺ ليعوده في بيته!!

إننا يجب أن نُدرك -لنعرف قيمة الموقف- أن رسول الله ﷺ هو أعلى سلطة في المدينة المنورة، والغلام اليهودي لا يعدو أن يكون خادمًا، وعلى غير مِلَّة الإسلام!

أيحدث في بقعة من بقاع الأرض أن يزور رئيس البلاد خادمًا له إذا مرض، وخاصة إذا كان على غير دينه؟!

إننا قد اعتدنا أن نقرأ مثل هذه المواقف عن حبيبنا ﷺ فلم نعُدْ نحلِّل وندرس، ولكنَّ الوقوف للتدبُّر في مثل هذه الكنوز يُعطينا فيضًا هائلاً من الخير والحكمة.

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٠)، وأبو داود (٣٠٩٥)، والنسائي في سننه الكبرى (٨٥٨٨)، وأحمد (١٣٣٩٩).

ثم إنه ﷺ لا ينسى وظيفته الأولى في الدنيا وهي البلاغ؛ فيدعوه إلى الإسلام، فيُسلِم الغلام، فيخرج النبي ﷺ فرحًا بإسلامه، كأنما أسلم أحد من أحبِّ أهله إليه.

إن هذا هو البرُّ والتواصل -حقيقةً- في أسمى صوره.

وما أبلغ وأروع الموقف الذي علَّمنا إيَّاه رسول الله ﷺ عندما مرَّت به جنازة يهودي!!

فقد روى الإمام مسلم عن ابن أبي ليلى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ(١) وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ(٢) كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ(٣). فَقَالا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ. فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»(٤).

ألا ما أروع هذا الموقف حقًّا!!

هذا حقًّا هو التواصل مع غير المسلمين في أزماتهم..

وهذا التواصل لم يكن للحظة عابرة، بل طال وقوف رسول الله ﷺ حتى اختفت الجنازة؛ ففي رواية لمسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة، أحد دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحروب، وكان شريف قومه، وكان من النبي ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد أعطاه رسول الله ﷺ الراية يوم فتح مكة، ومات بها سنة ٦٠ أو ٥٩هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٢٧٢، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٣٥٠، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٧١٧٦).

(٢) هو سهل بن حنيف بن واهب، شهد بدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وثبت يوم أحد، استخلفه علي رضي الله عنه حين خرج من المدينة إلى البصرة، كما شهد مع علي صفين وولاه على فارس، مات بالكوفة سنة ٣٨هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٢٣، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٣٥، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٣٥٣٢).

(٣) أي: من مجوس فارس.

(٤) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦١)، واللفظ له.

وَأَصْحَابُهُ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ حَتَّى تَوَارَتْ»(١).

وتخيَّل معي هذا الموقف الجليل وجنازة اليهودي تمرُّ، والرسول ﷺ وأصحابه ما زالوا واقفين!

إن هذا الموقف قد رسَّخ في أذهان الصحابة -والمسلمين من بعدهم- أن الإسلام يحترم كلَّ نفس بشرية ويُقَدِّرها ويُكَرِّمها، وهذا الذي دفع قيس بن سعد وسهل بن حنيف رضي الله عنهما أن يقفا لجنازة رجل مجوسي يعبد النار!

فالمجوسي هذا ليس كتابيًّا أصلاً، وهو على عقيدة مخالفة تمامًا لدين الإسلام، بل إنه من قوم محاربين، ومع ذلك فالصحابة رضي الله عنهم يُدركون قيمة النفس البشرية فيُكَرِّمونها ويقفون لها.

هذه هي علاقة الرسول ﷺ بغير المسلمين، وهذا هو قمة التواصل بين قائد دولة ورعيته من غير المؤمنين بدينه.

٥ - التهادي مع اليهود:

سار صحابة رسول الله ﷺ على نهجه في حُسن التعامل مع مَنْ يُجاورونهم، سواءٌ كانوا من اليهود أو من غيرهم، فهذا عبد الله بن عمرو ذبح شاةً فقال: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِي اليهوديِّ؛ فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(٢).

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦٠)، والنسائي (١٩٢٨)، وأحمد (١٩٢٨)، والبيهقي في سننه (٦٦٧٠).

(٢) رواه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار (١٩٤٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأبو داود (٥١٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٦٢)، ورواه الحميدي في مسنده (٥٩٣)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٤).

فهذا يُؤَكِّد على أنَّ الذي تَعَلَّمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما من رسول الله ﷺ في حقوق الجيران لم يكن فيه تفريق بين مسلم أو يهودي، وهذا قمَّة البرِّ والإحسان والتواصل، ومع أنها هديةٌ وليست فرضًا على المسلم، إلاَّ أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يشعر بمدى مسئوليته تجاه جاره، ولو كان يهوديًّا! ويتحرَّج من أكل اللحم دون إطعام جاره.

النقطة الثانية: موقف اليهود بعد المعاهدة:

مع كل هذا الرفق منه ﷺ إلاَّ أن الاستفزاز وسوء الطوية كان كثيرًا ما يحدث من قِبَل اليهود، وبرغم تفاقمه في أحداث كثيرة فإن رسول الله ﷺ كان يُقابل هذا السوء والتعدِّي بسعة صدر كبيرة، وبحكمة بالغة، وبأسلوب يحرص كل الحرص على استمرار التعايش السلمي بين الطوائف المختلفة في المدينة المنورة، فكان ﷺ يُقارع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، وما فرض عليهم رأيًا بالقوَّة، وما عاقبهم على محاولاتهم المستمرَّة بالكيد له ولأصحابه، ولم يُحَرِّك الجيوش لحربهم إلاَّ عندما ظهر منهم النقض الصريح للمعاهدة، والخطر المحدق بأمن المدينة المنورة وسلامتها.

ولنراجع بإيجاز ما فعله اليهود -على اختلاف قبائلهم- مع رسول الله ﷺ في فترة المعاهدة التي كانت بينه وبينهم:

١ - التهجم على رب العالمين:

وهذه بمفردها كارثة تستوجب أشدَّ العقاب، ليس لضعف إيمانهم، وإنكارهم الحقَّ الذي يعرفونه فقط؛ ولكن لأنهم بهذا التعدِّي يطعنون في المرجعية الأساسية للمسلمين؛ وبذلك فهم يحضُّون الناس على رفض التشريع الذي يحكمهم، وفي هذا فتنة كبيرة في المدينة، فلو أن اليهود احتفظوا باعتقادهم في صدورهم، أو تحدَّثوا به فيما

بينهم لكان الأمر أهون كثيرًا؛ فكفرهم لا يعود بالسوء إلاَّ عليهم، ولكن أن يُجاهروا بهذا الأمر فهذا غير مقبولٍ أبدًا. ومن ذلك ما نسبوه إلى رب العالمين ﷻ من الفقر، وفيهم أنزل الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ومن ذلك -أيضًا- أن قالوا: يد الله مغلولة، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومن ذلك -أيضًا- ادِّعاؤهم أن هناك آلهةً أخرى مع الله ﷻ -تعالى الله عمَّا يشركون- فقد جاء نفر منهم إلى رسول الله ﷺ، وكان فيهم النحام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمرو، فقالوا له: يا محمد، أما تعلم مع الله إلهًا غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، بِذَلِكَ بُعِثْتُ، وَإِنِّي إِلَى ذَلِكَ أَدْعُو». فأنزل الله ﷻ فيهم وفي قولهم: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، [الأنعام: ١٩، ٢٠][1].

وكذلك جاءوا إلى رسول الله ﷺ يزعمون أن لله ﷻ ولدًا؛ فقد جاء إليه سلام بن مِشكم، ونعمان بن أوفى، ومحمود بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا له: كيف نَتَّبِعُكَ وقد تركتَ قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا[2] ابن الله؟ فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٠٤، والسيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، ص٨٨.

(٢) هو عزير بن جروة -ويقال: ابن سوريق- من أنبياء بني إسرائيل، كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، أماته الله مائة عام ثم بعثه، جدَّد الدين لبني إسرائيل، وعلمهم التوراة بعد أن نسوها، فبدأ الناس يُقبلون عليه وعلى هذا الدين من جديد، وأحبُّوه حبًّا شديدًا، وقدَّسوه للإعجاز الذي ظهر فيه، حتى وصل تقديسهم له أن قالوا عنه: إنه ابن الله! وما زال اليهود يعتقدون بذلك إلى اليوم، وهذا من شركهم. انظر: ابن كثير: قصص الأنبياء ٢/ ٣٣٩.

ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]... إلى آخر القصة[١].

وبرغم هذه التعديات الشنيعة والافتراءات العظيمة فإنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يجادلهم في هذه الأمور إلاَّ بالتي هي أحسن، ولم يكن ﷺ يستغلُّ مطلقًا قوَّته كرئيس للمدينة المنورة لفرض ما يعتقده عليهم، بل يكتفي بالردِّ عليهم بحُجَّتِه، أو بقراءة ما نزل من القرآن في الشأن الذي يتحدَّثُون عنه.

وما ذكرناه من ادِّعاءات افتَرَوْهَا على ربِّ العالمين ﷻ؛ ليس إلاَّ طَرَفًا ممَّا كانوا يقولون، ومَنْ أراد الاستزادة فكُتب السيرة وتفاسير القرآن ملأى بمثل هذه الروايات.

٢ – تعدِّيهم على رسول الله ﷺ:

والرسول ﷺ ليس نبيًّا لا يُؤْمِنُ به اليهود فقط، إنما هو الآن حاكم للمدينة المنورة بكاملها، وقبل ذلك هو معاهد لهم على صحيفة فيها التعاون على البرِّ دون الإثم؛ فالطعن فيه والكلام عليه بسوءٍ خرق للمعاهدة التي بين الطرفين، ومع ذلك فما أوسع صدره ﷺ مع مواقف اليهود المتكرِّرَة! لقد كانوا يمرُّون عليه ويدعون عليه بالموت في وجهه، وهم يُحاولون أن يُظهِروا عكس ذلك، فيقول أحدهم: «السَّامُ عليكَ!». والسام هو الموت، فلا يزيد ﷺ في ردِّه عليهم على قول: «**وَعَلَيْكُمْ**»[٢]. بل وكان ﷺ يأمر الصحابة الذين يسمعون هذا الدعاء بأن يترفَّقوا

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٠٥، الطبري: جامع البيان، ١٤/ ٢٠٢، والسيوطي: لباب النقول ص١٠٤، وقال الدكتور حكمت بن بشير: أخرجه الطبري بسنده الحسن. انظر: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٢/ ٤٤٢.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٥٦٧٨) عن عائشة أم المؤمنين، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٤).

بالردِّ، ولا يتفحَّشُوا في القول.

ومن تعدِّيهم عليه -أيضًا- ما حدث من رفاعة بن زيد بن التابوت -وهو من عظماء اليهود- وكان إذا كلَّم رسولَ الله ﷺ لوى لسانه، وقال: «راعنا» سمعك يا محمد حتى نفهمك. ثم طعن في الإسلام وعابه، فهو يُريد أن يُوهم السامعين أنه يقصد: «راعنا» أي أعطنا، بينما هو يقصد اتهام رسول الله ﷺ بالرعونة، ويُريد بذلك سبَّ النبي ﷺ، وقد فضح الله ﷻ أمره، وأنزل فيه: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦][(١)]. ويقول الضحاك[(٢)] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت[(٣)]. أي أنهم يدعون عليه ﷺ بعدم السماع!

ولم تكن هذه السخرية بخافيةٍ على أحدٍ، بل كان اليهود يُعلنونها في المدينة، بل إن بعض المؤمنين ظنُّوا أن هذه الألفاظ هي التي يجب أن يُخاطَب بها الأنبياء؛ لأن اليهود قالوها، وهم -أي اليهود- أدرى بالتعامل مع الأنبياء. وهذا من حُسن ظنِّ المؤمنين باليهود في أول الأمر، فذهب هؤلاء المؤمنون إلى رسول الله ﷺ، وخاطبوه بالكلمة نفسها، وقالوا له: «راعنا». فأنزل الله ﷻ نهيًا لهم عن ذلك، وكشف أوراق

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩٩، والطبري: جامع البيان ٢/ ٤٦٢، وابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٩٦٣، وابن المنذر النيسابوري: تفسير القرآن ٢/ ٧٣٣، وقال حكمت بن بشير: أخرجه ابن أبي حاتم بسنده الحسن. انظر: الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٢/ ٦٠.

(٢) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، مفسِّر، وكان يُؤَدِّب الأطفال، ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي. له كتاب في التفسير، وقد روى عن أبي هريرة وابن عباس، تُوُفِّيَ بخراسان سنة (١٠٥هـ). انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٣٦٩، والبخاري: التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٢، والزركلي: الأعلام ٣/ ٢١٥.

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨/ ٤٣٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٣.

اليهود، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤][1].

لقد كان رسول الله ﷺ يرى ذلك السوء منهم في كل الأوقات، وكان يرى أنهم ينتهزون الفرص للتشكيك فيه كنبيٍّ، وللطعن فيه كإنسان؛ ولذلك عندما مرض أسعد بن زرارة[2] ﷺ مرض الموت، توقَّع رسول الله ﷺ السوء من اليهود، فقال وهو يعوده: «بِئْسَ الْمَيِّتُ لِيَهُودَ -مَرَّتَيْنِ- سَيَقُولُونَ: لَوْلا دَفَعَ عَنْ صَاحِبِهِ! وَلا أَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلا نَفْعًا»[3]. فرسول الله ﷺ لم يدَّعِ أبدًا أنه يملك الشفاء، أو يملك النفع والضرَّ؛ ولكنها الفرص التي يتصيَّدها اليهود ليطعنوا فيه.

ومع كل هذا -وغيره- من الاتهامات المباشرة له ﷺ، فإنه قابل كل ذلك بالحلم والرفق واللين، ومرَّر هذه الأحداث في تعقُّلٍ ومرونة؛ لكي يضمن استمرار المعاهدة.

٣- التعدي على باقي الأنبياء:

قد يقول قائل: إن هذا التعدِّيَ من جانب اليهود لا يُؤذي المسلمين؛ لأنهم لا يتحدَّثون هنا عن نبي المسلمين رسول الله ﷺ. ولكن على العكس من ذلك؛ فالمسلمون يُؤمنون بالأنبياء جميعًا، ولا يُفَرِّقون بينهم، ويعتزُّون بهم جميعًا، ولا

---

(١) انظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨/ ٤٣٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٣.

(٢) هو أسعد بن زرارة الأنصاري الخزرجي النجاري، يقال له: أسعد الخير. وهو من أول الأنصار إسلامًا، وكان عقبيًّا نقيبًا، شهد العقبة الأولى والثانية وبايع فيهما، وقيل: إنه أول مَنْ بايع ليلة العقبة، وكان أصغر النقباء. تُوُفِّيَ في السنة الأولى من الهجرة، ودُفِنَ بالبقيع. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٥٧، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٩٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (١١١).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٤٩٢)، وأحمد (١٧٢٧٧)، واللفظ له، والطبراني: المعجم الكبير، (٥٥٩٣)، والحاكم (٧٤٩٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥/ ٩٨.

يقبلون الطعن في أحدهم؛ بل إنهم لا يقبلون بالطعن في موسى عليه السلام ولو كان الطاعن يهوديًّا، والأمر كما قاله رسول الله ﷺ قبل ذلك: «**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**»(١).

غير أن طعن اليهود في الأنبياء يحمل دلالات أكبر من ذلك، وأهمها أنهم بطعنهم فيهم يُكَذِّبون صريح القرآن الذي يُعَظِّمهم ويُجِلُّهم، ويُكَذِّبون صريح كلام رسول الله ﷺ الذي يفتخر فيه بأُخُوَّته لبقية الأنبياء، والذي قال ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ**(٢) **أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(٣). ومنها تظهر خطورة التعدِّي على هؤلاء الأنبياء الكرام.

ومن أمثلة تعدِّيهم على الأنبياء ما فعلوه عندما كوَّنوا وفدًا منهم فيه أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر وغيرهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عمَّن يُؤمن به من الرسل، فقال رسول الله ﷺ: «**نُؤْمِنُ بِاللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**»(٤). فقال اليهود: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا نؤمن بمَنْ آمن به(٥).

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، (١٩٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، (١١٣٠).

(٢) أولاد علاَّت: هم الأخوة لأبٍ واحد من أمهات مختلفات، والمعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن وحسب العموم والخصوص. انظر: النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١١٩، ١٢٠.

(٣) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا..﴾ [مريم: ١٦]، (٣٢٥٩) عن أبي هريرة، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، (٢٣٦٥).

(٤) الكلام مأخوذ من سورة البقرة، آية ١٣٦.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٦٧، والطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٣/ ١١٠، وعبد الله الشقاري: اليهود في السنة المطهرة ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

ومع هذا التكذيب الصريح للقرآن ولرسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان لا يُكَمِّمُ أفواههم، ولا يَحْجُرُ على آرائهم، بل يُجادلهم بالحُجَّة، ويقرأ عليهم القرآن، وقد نزل في الموقف السابق قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩][(١)].

ومن قبيل تعدِّيهم -أيضًا- على الأنبياء إنكارهم لنبوَّة سليمان ؛، وقد أنكروها -مع تعظيمهم إيَّاه- لمجرَّد تكذيب القرآن الذي ذكر نبوَّته، هذا غير التحريفات الشنيعة الموجودة في توراتهم، والتي كانوا يقرءونها على أسماع أهل المدينة فتقشعر منها الأبدان؛ كافتراءاتهم على إبراهيم ولوط ويعقوب وإسحاق وغيرهم من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[(٢)].

٤ - التعدي على القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو دستور المسلمين وقانونهم، والتعدِّي عليه لا يحمل معاني سوء الأدب وقلَّة الحياء وذهاب الإيمان فقط، إنما يحمل -أيضًا- معاني الإخلال بالأمن والسلام داخل المدينة المنورة؛ إذ كيف ترجو أمانًا في بلدٍ يُطعَن في قانونه ويُشَهَّر بدستوره؟!

لقد دأبت اليهود على تتبُّع آيات القرآن الكريم وتكذيبها، وما ذكرناه من تعدِّيهم على الأنبياء يدخل في هذا المجال، ويُضاف إليه مواقف كثيرة؛ منها على سبيل المثال -لا الحصر- ما قاله اليهود لرسول الله ﷺ: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، إيَّانا تُريد أم

(١) انظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٣/ ١١٠، ١٠/ ٤٣٤.

(٢) انظر في تفصيل افتراءات اليهود على الأنبياء كتاب ابن القيم: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص١٠٦ وما بعدها، وقد جعل عنوانًا لذلك سماه: «من فضائح اليهود وقبائحهم المنكرة»، وأيضًا: «اليهود قتلة الأنبياء وأكلة الربا» ص١٥٣.

قومك؟[١] قال: «كُلاًّ»[٢]. قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ، وَعِنْدَكُمْ فِي ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ لَوْ أَقَمْتُمُوهُ». فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧][٣]. وقد ورد أن قريشًا هي التي طلبت من اليهود شيئًا يُجادلون به الرسول ﷺ؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت: قريش لليهود أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه فأنزلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: نحن لم نُؤتَ من العلم قليلاً، وقد أوتينا التوراة، ومَنْ أوتي التوراة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. قال: فنزلت: ﴿ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى ﴾ [الكهف: ١٠٩]، الآية[٤].

ومثال ذلك -أيضًا- تشكيكهم في المقصود من الحروف المقطَّعَة الموجودة في أوائل السور، وادعاؤهم أنها تُشير إلى عُمر الأُمَّة الإسلامية، وأنها تُشير إلى عمر قصير؛ ومن ثَمَّ فلا داعي للدخول في دين أُمَّةٍ عمرها قصير[٥].

وأمثلة ذلك كثيرة جدًّا، ومَنْ راجع تفاسير سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغيرها، سيقع على العديد من مثل هذه التعديات اليهودية.

---

(١) أي: تقصد أن العلم القليل هذا عند اليهود أم عند العرب؟

(٢) أي: كِلانا علمه قليل.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٠٨، والطبري: جامع البيان ٢٠/ ١٥٢، والواحدي: أسباب نزول القرآن، ص٣٤٦.

(٤) الترمذي (٣١٤٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي (١١٣١٤)، وأحمد (٢٣٠٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وابن حبان (٩٩)، وأبو يعلى (٢٥٠١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن. والحاكم (٣٩٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٥) لتفصيل القصة انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٤٦، والطبري: جامع البيان ١/ ٢١٧.

٥ – محاولات إثارة الفتنة بين المسلمين:

هذه جريمة خطيرة؛ إذ من الممكن أن تُقوِّض أركانَ الدولة بكاملها، والذي يُثير هذه الفتنة يُعتبَر مخالفًا للمعاهدة التي نصَّت على وجوب التناصح والتعاون.

ومن أشدِّ المواقف خطورة في السيرة تلك الفتنة التي حدثت بين الأوس والخزرج وكان وراءها اليهود؛ يذكر ابن إسحاق[١] أن شاس بن قيس اليهودي -وكان شيخًا قد عسا[٢]، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم- مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج يتحدَّثون، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم بعد ما كان بينهم من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[٣] بهذه البلاد، لا والله! ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر فتى شابًّا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث[٤] وما كان فيه، وأَنْشِدْهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار. ففعل؛ فتكلَّم القوم عند ذلك، وتنازعوا حتى تواثب رجلان على الرُّكَب[٥] أوس بن قيظي[٦] من

(١) ابن إسحاق: هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت ١٥١هـ = ٧٦٨م) من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة، من أشهر مصنفاته: (السيرة النبوية) الذي هذَّبه ابن هشام. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) أي: كَبُر.

(٣) قيلة: هي جدَّة الأوس والخزرج. انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص١٣٨.

(٤) يوم بعاث: يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وبُعاث اسم حصن للأوس. انظر: ابن منظور: لسان العرب ٢/ ١١٦، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٥٩.

(٥) كانوا إذا تخاصموا جلسوا على الركب للخصومة. ابن منظور: لسان العرب، ١٤/ ١٣١.

(٦) هو أوس بن قيظي بن عمرو الأنصاري الحارثي، شهد أحدًا هو وابناه كباثة وعبد الله، يقال: إنه (أوس) كان من كبار المنافقين، وهو أحد القائلين: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ [الأحزاب: ١٣]. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢١١، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٢٥٠، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٣٤٨).

الأوس، وجبار بن صخر[(١)] من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددتها الآن جذعة[(٢)]! وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة (الحَرَّة)؛ السلاح، السلاح! فخرجوا، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمَنْ معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلإِسْلام، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!**». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوِّهم، فبَكَوْا، وعانق الرجالُ من الأوس الرجالَ من الخزرج، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ[(٣)].

ففي هذا الموقف نرى الرسول ﷺ يتعامل مع هذه المشكلة التي حدثت دون أن يُوَجِّه كلامًا إلى شاس بن قيس أو غيره من اليهود، بل كان كلامه ﷺ للصحابة ﷺ جميعًا؛ وذلك حرصًا منه ﷺ على بقاء أواصر الترابط والتعايش بين المسلمين واليهود في المدينة المنورة. ورغم أن ما قام به شاس بن قيس هذا يُعَدُّ خرقًا لبنود المعاهدة وللوثيقة التي رضي بها الطرفان، فإن الرسول ﷺ يعفو ويصفح ويتجاوز؛ انطلاقًا من إنسانيته ورحمته وجميل خلُقه ﷺ.

---

(١) هو جبار بن صخر السلمي الأنصاري، يكنى أبا عبد الله، شهد بدرًا وهو ابن ٣٢ سنة، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين المقداد بن الأسود، توفي في المدينة سنة (٣٠هـ). انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٣٠١، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٦١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٥٢).

(٢) رددتها جذعة؛ أي: أشعلنا الحرب قوية من جديد.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٥٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٤٧، والطبري: جامع البيان ٦/ ٥٥، ٥٦. رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن شيخ مبهم لم يسمه، والواحدي من مرسل عكرمة، وصحَّ قوله ﷺ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟**»... «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**». لما ضرب رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! وذلك من حديث جابر ﷺ المتفق عليه، البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، (٣٣٣٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، (٢٥٨٤).

٦ – تحريض الأنصار على عدم المشاركة المالية مع رسول الله ﷺ:

هذه -أيضًا- جريمة كبرى، وتخيَّل أن هناك مَنْ يحضُّ الناس على عدم الولاء المالي للدولة، أو عدم دفع الضرائب في الدولة الحديثة، أو عدم المشاركة في قضايا الدولة الماسَّة، إن هذه -والله- لفتنة كبيرة!

ومن هذا ما حدث من كردم بن قيس، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، فإنهم كانوا يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يُخالطونهم، ينصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تُنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تُسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون! فأنزل الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٣٧][1].

٧ – إثارة الشائعات التي تُزعج المسلمين:

وهذه من طبائع اليهود المتأصِّلة فيهم، وهي إثارة الشائعات التي لا أصل لها، وخاصة إذا كان فيها تهويلٌ لشأن اليهود، وتخويفٌ من سطوتهم؛ ومن ذلك ما أشاعوه من أنهم سَحَرُوا المسلمين فلا يُولد لهم مولود، وقد أحزن ذلك المسلمين جدًّا؛ حتى إن أسماء بنت أبي بكرٍ[2] رضي الله عنهما تروي أنها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزبير

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٩٩، ١/ ٥٦٠، والطبري: جامع البيان ٨/ ٣٥٣، وابن المنذر: تفسير القرآن، ٢/ ٧٠٧، وابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٩٦٤، والواحدي: أسباب نزول القرآن ص١٥٣، وقال الحميدان محقق أسباب النزول: أخرجه ابن جرير في تفسيره وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق بسنده... فأنزل الله الآية. وإسناده حسن.

(٢) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، كانت تحت الزبير بن العوام، وكان إسلامها قديمًا بمكة، ثم هاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقباء، وقد توفيت بمكة في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير بيسير. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٢، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٧٩١).

بِمَكَّةَ. قالت: فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ[(١)]، فأتيتُ المدينة، فنزلتُ قُبَاءً، فَوَلَدْتُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ الله ﷺ، فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ، ثُمَّ دَعَا لَهُ فَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ، فَفَرِحُوا بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا؛ لأَنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ سَحَرَتْكُمْ، فَلا يُولَدُ لَكُمْ[(٢)].

فهذه شائعات لا أصل لها كان اليهود يبثُّونها هنا وهناك، وكان هذا الأمر يُثير الحزن والقلق في ربوع المدينة.

٨ – تكوين الجيوب السرية مع المنافقين:

التعاون بين اليهود وبين الطابور الخامس من منافقي المدينة أصيل ووثيق، وما أكثر المواقف التي ثبت فيها هذا التعاون! الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى حدٍّ عظيم من الخطورة، وقد أشار الله ﷻ إليه في كتابه الكريم في أوائل ما نزل من القرآن في المدينة؛ عندما قال وهو يصف حال المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، قال النسفي[(٣)] رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم، وهم اليهود»[(٤)].

---

(١) وأنا متم: أي قد أتممت مدَّة الحمل الغالبة؛ وهي تسعة أشهر. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٢٤٨.

(٢) البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود (٥١٥٢)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه (٢١٤٦).

(٣) النسفي: هو عبد الله بن أحمد أبو البركات، فقيه حنفي مفسِّر، نُسب إلى منطقة نسف في بلاد السند، وهو من الزهاد والعلماء، له مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول والتفسير، أبرزها تفسيره «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، وله أيضًا: «كنز الدقائق» في الفقه، تُوُفِّيَ قرب أصبهان سنة (٧١٠هـ). انظر: الزركلي: الأعلام ٤/ ٦٧، والباباني: هدية العارفين ص٢٤١.

(٤) انظر: النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ٥٢.

ورأينا في السيرة تعاون عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول رأس المنافقين مع يهود بني قينقاع ووساطته من أجلهم(١)، بل رأينا ما هو أشدّ من ذلك، وهو تعاون المنافقين مع يهود بني النضير، وتواعدهم معًا على قتال المسلمين، وفي هذا ما فيه من خطورة على البنيان الداخلي في المدينة، وقد أنزل الله ﷻ في ذلك قرآنًا بيِّنًا واضحًا يفضح هذه التكتُّلات السرِّيَّة، ويكشف هذه المؤامرات الدنيئة؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١]. وانظر إلى التعبير القرآني الفريد وهو يصف اليهود بأنهم إخوان المنافقين، مع ما تحمله كلمة «إخوانهم» من معاني الولاء والمحبَّة والنصرة.

لقد كان هذا أمرًا خطيرًا جدًّا في المدينة المنورة، ورأينا في السيرة العواقب الوخيمة التي حدثت من وراء ذلك.

٩ - التلاعب بالدين الإسلامي عن طريق الدخول فيه والخروج منه:

وهذه خطة شيطانية الغرض منها زعزعة ثقة المسلمين بدينهم، وقد تولَّى كبرها عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف -وكلهم من زعماء اليهود- حين قالوا: تعالوا نُؤمن بما أُنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية؛ حتى نُلْبِسَ عليهم دينهم؛ لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه!

فأنزل ﷻ فيهم: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٨، ٢٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١١٤.

رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن ﴿يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣](١).

١٠ - محاولات التشكيك في العقيدة والفقه الإسلامي:

لقد حاول اليهود مرارًا أن يُقنعوا أهل المدينة بأن هناك ثغرات كثيرة في الدين الإسلامي وفي الشريعة الإسلامية، واستعملوا ذكاءهم في التفنُّن في ابتكار أسئلة تبدو مُحْرِجَةً لرسول الله ﷺ، ولكن كان رسول الله ﷺ يَدْمَغُهم بالحُجَّة القوية والبرهان الساطع، وكان الوحي ينزل بالقرآن الذي يردُّ على الشبهات، ويكشف المفتريات.

وكان من ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما من أن عصابة من اليهود حضرت يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، حَدِّثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلاَّ نبي. قال: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عليه السلام عَلَى بَنِيهِ، لَئِنْ حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلَامِ». قالوا: فذلك لك. قال: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ». قالوا: أخبِرْنَا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّل التوراة؟ وأخبِرْنَا: كيف ماء المرأة وماء الرجل؛ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا: كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومَن وليُّهُ مِنَ الملائكة؟

قال: «فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أَنَا أَخْبَرْتُكُمْ لَتُتَابِعُنِّي». قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. قال: «فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عليه السلام مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ للهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩١، وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٦، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٠.

اللهُ تَعَالَى مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ».

«فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى؛ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلاَ كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللهِ؛ إِنْ عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ عَلَى مَاءِ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِنْ عَلاَ مَاءُ الْمَرْأَةِ عَلَى مَاءِ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللهِ؟». قالوا: اللهم نعم! قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ».

«فَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ؟». قالوا: اللهم نعم! قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قالوا: وأنت الآن، فحدِّثْنا مَنْ وَلِيُّكَ من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: «فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ عليه السلام وَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلاَّ وَهُوَ وَلِيُّهُ». قالوا: فعندها نفارقك؛ لو كان وليُّك سواه من الملائكة لتابعناك وصدَّقناك. قال: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ؟». قالوا: إنه عدوُّنا. قال: فعند ذلك أنزل الله ﷻ:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[البقرة: ٩٧-١٠١] فعند ذلك: ﴿ و﴿بَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠](١).

فها هي الآيات تتضح أمام أعينهم، ولكنهم لا يُريدون اتِّباع الحقيقة وهم يعلمونها، ومع ذلك اتَّسع صدره ﷺ للحوار معهم، وهو يعلم أنهم لا ينقصهم

(١) رواه النسائي (٩٠٧٢)، وأحمد (٢٥١٤) واللفظ له، وقال شعيب الأرناءوط: حسن. والطبراني: المعجم الكبير (١٣٠٤٥)، وقال الهيثمي: رواه الترمذي باختصار، رواه أحمد والطبراني ورجالها ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ٢٤٢.

علم ولا يحتاجون إلى دليل.

ولقد قال له في يوم من الأيام أبو صلوبا الفطيوني: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩][(١)].

وفي موقف آخر نجد اليهود يُخْفُونَ الحقيقة في محاولة الادِّعاء على رسول الله ﷺ بعدم المعرفة، وهو موقف حكاه لنا عبد الله بن عمر[(٢)] رضي الله عنهما أنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأةً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فقالوا: نفضحهم، ويُجلدون. فقال عبد الله بن سلام[(٣)]: كذبتم! إنَّ فيها الرَّجم. فَأَتَوْا بالتَّوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرَّجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده، فإذا فيها آية الرَّجم، فقالوا: صدق يا محمَّد! فيها آية الرَّجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما[(٤)]. فهنا نرى أن اليهود يكذبون على رسول الله ﷺ، ويُخْفُونَ الأحكام

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٤٨، والطبري: جامع البيان ٢/ ٣٩٨، والواحدي: أسباب نزول القرآن ص٣١.

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وأول مشاهده الخندق، وقد ردَّه الرسول ﷺ قبل ذلك لصغر سنه. كان ﷺ من أهل الورع والعلم، وكان كثير الاتباع لآثار الرسول ﷺ، شديد التحري في فتواه. توفي بمكة سنة (٧٣هـ). انظر: الذهبي: تجريد أسماء الصحابة ١/ ٣٢٥، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٨٣٢).

(٣) عبد الله بن سلام: هو أبو يوسف عبد الله بن سلام الإسرائيلي الأنصاري، من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، كان من بني قينقاع، وكان اسمه الحصين فغيَّره النبي ﷺ، وكان إسلامه لما قدم النبي المدينة مهاجرًا، وفيه قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ عَاشِرُ عَشَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ». توفي بالمدينة في خلافة معاوية سنة ٤٣هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٩٢١-٩٢٣، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) البخاري: كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] (٣٤٣٦)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (١٦٩٩).

التي في توراتهم متعمّدين، غير عابئين بما حكم الله به في كتابهم.

ولعلَّ من أهم المواقف التي تُوَضِّح رغبة اليهود في تلبيس الدين على المسلمين، ما حدث منهم عند تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، يروي ذلك البراء بن عازب[(١)] رضي الله عنهما فيقول: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ وَهُمُ الْيَهُودُ: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن ﴿يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢][(٢)].

فهذه شبهة أثارها اليهود، وهم يتّهمون المسلمين بالتخبُّط بين القبلتين، فأنزل الله ﷻ ردَّه عليهم بأن له ﷻ المشرقَ والمغربَ، والقضية قضية إيمان وطاعة. وقد أثارت هذه الشكوك مخاوف بعض المسلمين، فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه، قالوا: يا رسول الله، فكيف الذين ماتوا وهم يُصَلُّون إلى بيت المقدس؟! فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣][(٣)].

إنه ليس يعنينا في هذا المجال أن نقوم بحصر كل ما افتعله اليهود من أزمات، وكل ما أحدثوه من مخالفات، على الرغم مما تقدَّم ذِكره من حُسن معاملة الرسول

(١) البراء بن عازب: هو أبو عمارة البراء بن عازب بن حارث الأوسي، وقيل: الخزرجي الأنصاري. له ولأبيه صحبة، ردَّه رسول الله ﷺ في بدر لصغره، وغزا مع رسول الله ١٤ غزوة، فتح الري سنة ٢٤هـ في خلافة عثمان، وسكن الكوفة، وبها توفي سنة ٧٢هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٥٦، وابن حجر: الإصابة ١/ ٢٧٨.

(٢) البخاري: كتاب أبواب القبلة باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٣٩٠)، واللفظ له، والترمذي (٣٤٠)، والنسائي (٤٨٩)، وابن حبان (٦٨٧٠)، والحاكم (٣٠٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب السنة، باب في زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٠)، ورواه الترمذي (٢٩٦٤)، وقال: حديث حسن صحيح. والدارمي (١٢٣٥)، والحاكم في المستدرك (٣٠٦٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ﷺ لهم، ومن حرصه الدائم ﷺ على تقديم الودِّ والجدال بالتي هي أحسن، ومراعاة حقوق الجوار، ولو بقي حال اليهود على ما هو عليه لكان الأمر محتملاً ومقبولاً، ولكنهم تطاولوا أكثر من ذلك، وما زادهم حلم رسول الله ﷺ إلاَّ جهلاً، وما زادهم رفقه إلاَّ شدَّة وعنفًا؛ حتى طَفَّ الصاع، وثقُل الحمل، وبلغ السيل الزُّبى، وارتكبوا من الأمور ما لا يمكن احتماله؛ ومن ثَمَّ كان نقضًا صريحًا للمعاهدة يتعذَّر معه صفح، ويستحيل حياله تجاهل؛ لقد خالفت بنو قينقاع مخالفات جسيمة، بمراودة المرأة على كشف وجهها، ثم التحايل على كشف عورتها، ثم الاجتماع القبلي على قتل رجل مسلم، وخالفت بنو النضير بمحاولة صريحة لقتل رسول الله ﷺ، وكذلك خالفت بنو قريظة في محاولة أشدَّ عنفًا وضراوةً تهدف إلى قتل واستباحة كلِّ مَنْ في المدينة المنورة!

إن هذه الجرائم ما كان يستقيم -بأي حال من الأحوال- أن يُسكَتَ عنها، أو يُتغاضَى عن عقاب مرتكبيها؛ إنها جرائم حرب في المقام الأول، ولا تختلف أعراف العالم أجمع في الحكم عليها؛ ومن ثَمَّ كان خروج رسول الله ﷺ لقتالهم جميعًا؛ القبيلة تلو الأخرى؛ مما أدَّى إلى إجلاء بني قينقاع وبني النضير، وإصدار حكمٍ بالقتل على الخائنين من بني قريظة.

إن المتتبع للسلوك النبوي في التعامل مع اليهود في أثناء زمن المعاهدة، لَيَجِد أوسع درجات كظم الغيظ؛ بل البرّ والإحسان، لكنَّ النفوس المريضة أبتْ إلاَّ أن تبحث عن صِدامٍ ونِزَال، ورفضت حياة الأمن والسلام، وكما قال الأولون: «على نفسها جنت براقش!»[1].

---

(١) مثلٌ يُضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه، ومما قيل في أصل هذا المثل: إن براقش كانت كلبة لقوم من العرب، فأُغير عليهم فهربوا ومعهم براقش، فاتبع القوم آثارهم بنباح براقش، فهجموا عليهم وأوقعوا بهم. وأصل المثل: «أهلها» بدلاً من «نفسها»، ولكنه اشتهر بالأخيرة. انظر: الميداني: مجمع الأمثال ص٢٠٢، والزمخشري: المستقصى في أمثال العرب ص١١٤، وابن سلام: الأمثال ص٦٣.



المبحث الثاني

المعاهدة مع يهود خيبر

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون وقلاع ومزارع، وهي تقع على بُعد ثمانين ميلاً شمال المدينة، وكانت على مدار سنوات عديدة تُمثِّل منطلقًا للكثير من المؤامرات اليهودية الموجهة ضدَّ المسلمين في المدينة المنورة.

وسيتم -إن شاء الله- دراسة هذه المعاهدة من خلال هذه المطالب:

المطلب الأول: مرحلة الدعوة

المطلب الثاني: الموقف العدائي ليهود خيبر

المطلب الثالث: الحرب والسلام مع خيبر

المطلب الرابع: ما بعد المعاهدة

المطلب الأول: مرحلة الدعوة:

لم يكن هناك أيُّ عداء أو تحرُّش حربي من المسلمين ضدَّ يهود خيبر؛ بل على العكس من ذلك كانت الدعوة من رسول الله ﷺ لهم، ومراسلتهم من خلال كتاب رسول الله ﷺ إليهم، والذي يدعوهم فيه إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ويُذَكِّرهم ببعض ما عندهم في التوراة، وقد ذكر ابن إسحاق ذلك فقال: وكتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر، فيما حدثني مولى لآل زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما: **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَاحِبِ موسى وَأَخِيهِ وَالْمُصَدِّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ موسى: أَلاَ إِنَّ اللهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ يَا**

مَعْشَرَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ، وَإِنَّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وَإِنِّي أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَيْبَسَ الْبَحْرَ لآبَائِكُمْ حَتَّى أَنْجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ؛ إِلاَّ أَخْبَرْتُمُونِي: هَلْ تَجِدُونَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ؟ فَإِنْ كُنْتُمْ لا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلا كره عَلَيْكُمْ؛ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ[(١)].

المطلب الثاني: الموقف العدائي ليهود خيبر:

ومع أن الرسول ﷺ لم يدخل في صراع أو حربٍ مع خيبر؛ إلا أن هذه المدينة كانت ملاذًا آمنًا ومستقرًّا معروفًا لمن يُريد التخطيط لهدم الدولة الإسلامية وتقويض بنيانها، فقد لجأ إليها سلامُ بن أبي الحقيق المعروف بأبي رافع، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وهم من أشراف بني النضير[(٢)]، ومن ألدِّ أعداء المسلمين، ومن الذين أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة بعدما اقترفوا من الجرائم الكثير والكثير.

وإن مجرَّد إيواء هذه القيادات من الأعداء لهو جريمة كبرى ضدَّ الدولة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٤٤، ٥٤٥، والزيلعي: نصب الراية ٤/ ٤١٩، وابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٩١، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٥٥٤، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٤٧.

الإسلامية، كما أنه تحدٍّ واضحٍ للإسلام وللرسول ﷺ.

ولم يكن لجوء هؤلاء اليهود من بني النضير إلى خيبر لمجرَّد العيش والاستقرار بين أهل خيبر؛ وإنما كان لإشعال نيران الحرب ضدَّ المسلمين، وتجميع مَنْ حولهم على قلب رجل واحد لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين، ولاقتلاع المدينة من جذورها.

وقد بدأ يهود بني النضير المقيمين بخيبر، ومَنْ معهم من يهود خيبر وزعمائها بتأليب المجتمع القَبَلي على المسلمين.

فخرجت مجموعة من يهود خيبر ويهود بني النضير لتجميع الأحزاب المشركة بهدف حصار المسلمين، فتوجَّهُوا أولاً إلى قريش لإغرائها بحرب المسلمين؛ وأن هذه فرصة لجمع كل القبائل لقتال المسلمين، ومما قالوه لمشركي قريش: إنا سنكون معكم حتى نستأصله(١). وبدأت قريش في تجميع المقاتلين؛ فتجمَّع أربعة آلاف مقاتل، ثم انتقل اليهود من قريش إلى غطفان لإغرائهم بقتال المسلمين، وتخوَّفت غطفان من حرب المسلمين رغم أنهم قبائل كثيرة وقوية، فقام اليهود بإغراء غطفان بالأموال، ورغم بخل اليهود بالمال فإنهم عند الصدِّ عن سبيل الله ومحاربة الإسلام يُنفقون ببذخ؛ فقد عاهد اليهود غطفان على أن تكون لهم ثمار خيبر لمدَّة عام، والمعروف أن ثمار خيبر كانت كثيرة، فضحَّوْا بكلِّ هذا من أجل حرب المسلمين، وإلحاق الأذى بهم، ووافقت قبائل غطفان بعد أن أغراهم اليهود بالمال على أن يعملوا على تجميع ستة آلاف مقاتل، فيكون مجموع الأحزاب عشرة آلاف مقاتل، كان لليهود -كما نرى- الدور الأكبر في تجميعهم لغزو المدينة المنورة.

ولو تمَّ للأحزاب ما أرادوا لأُبيد شعب المدينة عن آخره، عدا يهود بني قريظة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢١٤، والطبري: جامع البيان ٢٠/ ٢١٨، وتاريخ الرسل والملوك، ٢/ ٥٦٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ١٨٢.

-بالطبع- لتعاونهم مع الأحزاب، وخيانتهم للمسلمين.

كانت خيبر -إذًا- تمثِّل بؤرة خطرٍ عظيمٍ على المسلمين، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يقتربوا منها بسوء، فإنها كانت دائمًا على عداء تامٍّ للرسول ﷺ وللمسلمين؛ وهذا ما جعل هناك ضرورة مُلِحَّة لتأديبهم، ومحاسبتهم على بعض ما اقترفوا من جرائم في حقِّ الدولة الإسلامية.

المطلب الثالث: الحرب والسلام مع خيبر:

فلما تفرَّغ الرسول ﷺ من أمر قريش بصلح الحديبية، التفت إلى يهود خيبر فحاصرهم وقاتلهم حتى نزلوا على رأيه ﷺ.

ولم يكن يهود خيبر ليستسلموا سريعًا، فهم يملكون الحصون العظيمة التي يستطيعون من خلالها توفير الحماية لهم، ومواجهة مَنْ يُقاتلهم مدَّةً طويلة، كما أظهروا ألوانًا من الصمود والشراسة في القتال، وأظهروا الكبر والعناد ضدَّ المسلمين.

وبعد معارك عديدة وحصار لحصونهم الواحد تلو الآخر طلب اليهود أن ينزلوا على الصلح، وأن يتفاوضوا مع رسول الله ﷺ، وقَبِلَ ﷺ منهم ذلك، وكانت خلاصة الأمر أن تمَّ التصالح على حقْن دمائهم، ودماء كلِّ مَنْ في الحصون من المقاتلة والذرية والنساء، وعلى أن يتركوا خلفهم الديار والسلاح والأموال والذهب والفضة ويخرجوا دون شيء، كما اشترط الرسول ﷺ في هذه المعاهدة عليهم شرطًا مهمًّا: **«أَنْ لَا يَكْتُمُوا، وَلَا يُغَيِّبُوا شَيْئًا، فَإِنْ فَعَلُوا فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ، وَلَا عَهْدَ»**[1]. أي لو أن أحدًا من اليهود أخفى شيئًا من الأموال أو من الذهب أو

(١) رواه أبو داود (٣٠٠٦)، وابن حبان (٥١٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٧/ ٤٣١، وانظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٨١، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٧٧، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١٢٩، ٣/ ٢٨٩،٢٩٠.

الفضة، فللرسول ﷺ أن يقتله بهذا الإخفاء، وقَبِل اليهود هذا الصلح، وبدءوا في الخروج من خيبر، وقد حقن الرسول ﷺ دماءهم جميعًا بهذا الصلح، وذلك رغم ما قدَّمت أيديهم من سوء، ولم يقتل إلاَّ مَنْ برزت خيانته لهذا العهد، كما وقع لكنانة بن أبي الحقيق[(١)].

إلى هذا الحدِّ كان الأمر كله بيد المسلمين، وليس أمام اليهود اختيار غير الخروج، ومع ذلك ولرغبة رسول الله ﷺ في التعايش السلمي مع الآخر؛ قَبِلَ بالطرح الذي قدَّمه اليهود؛ لقد طلب اليهود من الرسول ﷺ أن يزرعوا هذه الأرض مناصفة مع المسلمين؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ الْيَهُودَ أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا**»[(٢)].

وكان هذا الصلح بمثابة الإحسان التامِّ من قِبَل رسول الله ﷺ ليهود خيبر، وإنقاذًا لهم من الخروج إلى الصحراء؛ فقد كانت المعاهدة الأولى تنصُّ على إجلائهم تاركين خلفهم كل شيء.

***

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قاتل أهل خيبر... فصالحوه على أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء... على أن لا يكتموا ولا يُغَيِّبُوا شيئًا؛ فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد؛ فغَيَّبُوا مسكًا لحيي بن أخطب... فقال النبي ﷺ لعم حيي: «**أَيْنَ مَسْكُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ؟**» قال: أذهبته الحروب والنفقات. فوجدوا المسك، فقتل ابن أبي الحقيق. رواه أبو داود (٣٠٠٦)، وابن حبان (٥١٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان ٧/ ٤٣١، وقال الشوكاني: فقتل النبي ﷺ ابني أبي الحقيق -وهو رأس يهود خيبر-... إنما قتلهما لعدم وفائهم بما شرطه عليهم؛ لقوله في أول الحديث: «**فَإِنْ فَعَلُوا فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا عَهْدَ**». انظر: نيل الأوطار ٨/ ٥٩.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر (٢٥٧١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، (١٥٥١).

المطلب الرابع: ما بعد المعاهدة:

لقد جرت الحياة بصورة طبيعية مع أهل خيبر، الذين ظلُّوا في أعمالهم يقومون بها بحُرِّيَّة تامَّة، ولم تُؤْثَر أي مواقف تدلُّ على تعنُّت المسلمين مع يهود خيبر؛ برغم الاختلاط الواضح والمستمرِّ لفترة كبيرة نظرًا لطبيعة العمل الذي يربط بين الفريقين؛ مما يدلُّ على إحسان المسلمين وسُمُوِّ أخلاقهم مع يهود خيبر.

وعلى الرغم من حرص الرسول ﷺ الدائم على الوفاء لليهود بعهدهم؛ فإنه قد ظهرت عدَّة مخالفات خطيرة ليهود خيبر معه؛ منها محاولتهم أن يقتلوه عن طريق وضع السمِّ في الشاة؛ فيروي أبو هريرة ﷺ فيقول: لَمَّا فُتحت خيبر أُهدَيَتْ للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**». فجُمعوا له فقال: «**إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟**» فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «**مَنْ أَبُوكُمْ؟**» قالوا: فلان. فقال: «**كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ**». قالوا: صدقت. قال: «**فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟**» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ في أبينا. فقال ﷺ لهم: «**مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟**» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: «**اخْسَئُوا فِيهَا! وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا**». ثم قال ﷺ: «**هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟**». فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «**هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟**» قالوا: نعم! قال ﷺ: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟**» قالوا: أردنا إن كنتَ كاذبًا نستريح، وإن كنتَ نبيًّا لم يضرَّكَ[1].

لقد قام رسول الله ﷺ بتحقيقٍ هادئ غير منفعل مع اليهود الذين دبَّروا مؤامرةَ اغتياله، وأقام عليهم الحُجَّة حتى اعترفوا بألسنتهم بأنهم دَبَّروا محاولةَ القتل،

(١) البخاري: كتاب الطب، باب ما يُذكر في سمِّ النبي ﷺ (٢٩٩٨)، وأبو داود (٤٥٠٨)، وأحمد (٩٨٢٦).

واكتشف ﷺ أن هذه المجموعة من اليهود قد أمرت إحدى نساء اليهود لتضع السُّمَّ بنفسها في الشاة، ثم تُقَدِّمها إلى رسول الله ﷺ.. فالرجال هم الذين أمروا، والتي نَفَّذَت الأمر وباشرت الفعل هي المرأة.

وقبل أن تعرف ردَّ فعله ﷺ لهذه المؤامرة تَوَقَّفْ لحظاتٍ مع واقع غيره من الزعماء والرؤساء والملوك، وردود أفعالهم لِمَنْ دبَّر مؤامراتٍ لاغتيالهم! إن أبسط ما يُمكن تخيُّلُهُ في هذه اللحظات أن يُقتَل الذي باشر الفعل، والذي أمر به، والذي عَلِم به، والذي رضي به.. وقد يُؤخذ عموم أهل البلدة أو المدينة بفعل هذا الرجل.. إن هذا هو الواقع فعلاً دون مبالغة.

فماذا كان حال رسولنا ﷺ؟!

لقد قال الصحابة ﷺ لرسولنا ﷺ: ألا تقتلها؟! فرفض ﷺ؛ لأنها محاولةُ قتلٍ، وليست قتلاً فعلاً!! فلا يجوز قتلها.

ثم إنه ﷺ لم يُعاقبها، ولا مَنْ أمرها من اليهود بأي عقابٍ؛ لأنه قَبِلَ حُجَّتَهُمْ: لو كان كاذبًا استراحوا، ولو كان نبيًّا لم يضرّه.

لقد قَبِلَ ﷺ حُجَّتهم مع أنَّ أحدًا منهم لم يؤمن؛ مما يُوَضِّح أنهم لم يفعلوا ذلك أملاً في ظهور الحقيقة، ولكن فعلوا ذلك حَسَدًا من عند أنفسهم، وبُغضًا لرسول الله ﷺ. ومع كل ذلك، لم يُعاقبهم..

غير أن أحد الصحابة وهو بشر بن البراء بن معرور[١] رضي الله عنهما كان قد أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة، فمات مقتولاً بسُمِّهَا، فهنا أمر رسولُ الله ﷺ

(١) بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، ومات بخيبر حين افتتاحها سنة سبع من الهجرة، من تلك الأكلة التي أكلها مع رسول الله ﷺ، قيل: إنه لم يبرح من مكانه حين أكل منها حتى مات. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٥١، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ١١٥، ١١٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٦٥٤).

بقتل المرأة قصاصًا، ولم يُقْتَل معها أحدٌ من أهل خيبر. يقول القاضي عياض[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يقتلها رسول الله ﷺ أولاً حين اطَّلع على سُمِّهَا، وقيل له: اقتُلْها. فقال: لا. فلمَّا مات بشر بن البراء من ذلك سلَّمها لأوليائه، فقَتَلوها قِصَاصًا»[٢].

وكذلك ما فعلوه مع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه من محاولة رشوته ليُخالف التوزيع الذي اتَّفق عليه الطرفان بشأن ثمار الأرض؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ وَاشْتَرَطَ أَنَّ لَهُ الْأَرْضَ، وَكُلَّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ**[٣]، قال أهل خيبر: نحن أعلم بالأرض منكم فَأَعْطِنَاهَا على أنَّ لكم نصف الثمرة ولنا نصف. فَزَعَمَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فلمَّا كان حين يُصرم النخل[٤] بعث إليهم عبد الله بن رواحة فحزر عليهم النخل، وهو الذي يسميه أهل المدينة الخَرْصَ[٥]، فقال: في ذِهْ كذا وكذا. قالوا: أكثرتَ علينا يا ابن رواحة. فقال: فأنا أَلِي حَزْرَ النخل وأعطيكم نصف الذي قلتُ. قالوا: هذا الحقُّ وبه تقوم السماء والأرض قد رضينا أن نأخذه بالذي قلتَ[٦].

ولكن رواية الإمام مالك في الموطأ تُوَضِّح لنا تفاصيل أكثر عن محاولة الرشوة؛ فعن سليمان بن يسار أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر

---

(١) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ = ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. وَلِي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣-٤٨٥، والزركلي: الأعلام ٥/ ٩٩.

(٢) انظر: النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٤/ ١٧٩.

(٣) الصفراء والبيضاء؛ أي: الذهب والفضة.

(٤) يُصرم النخل بالبناء للمجهول أي يقطع ثمرها.

(٥) الخَرْص: تقدير ما على النخيل من الثمار تخمينًا.

(٦) أبو داود: كتاب البيوع، باب في المساقاة (٣٤١٠)، وابن ماجه (١٨٢٠)، وابن حبان (٥١٩٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح. والطبراني: المعجم الكبير (١٢٠٩١)، وحسنه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٧/ ٤٣١.

فيخرص بينه وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا له حليًّا من حلي نسائهم، فقالوا له: هذا لك وخَفِّفْ عنَّا وتجاوز في القسم. فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود؛ والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليَّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأمَّا ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت، وإنَّا لا نأكلها. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض(١).

وهذه القصَّة تُبيِّن مدى الفساد الذي كان يُعَشِّش في قلوب اليهود، ورغبتهم في نشر هذا الفساد في أوساط الصحابة ﷺ؛ فهم لم يكتفوا بما كانوا يفعلونه من ربا ورشوة؛ فأرادوا هنا أن يقوموا برشوة الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة ﷺ؛ وهم هنا يُدركون أنهم يُفسدون الجهاز الحكومي لدولة الإسلام؛ فليس الأمر مجرَّد محاولة الاستزادة فوق نصيبهم المحدَّد وفق المعاهدة، وإنما هي محاولة لإشاعة الفساد في الدولة الإسلامية.

ومع ذلك، وبرغم هذه التعديات فإن الرسول ﷺ ظلَّ وفيًّا على عهده معهم، ولم يحدث بينه وبينهم أي مناوشات أو صدامات حتى وفاته ﷺ.

***

(١) الموطأ - رواية يحيى الليثي (١٣٨٨)، والبيهقي: السنن الكبرى (٧٢٢٩)، والطبراني: المعجم الكبير (٤٢٦)، وصححه الألباني، انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ص٢٦٤.



خلاصة القول
في تعاملات الرسول ﷺ مع اليهود

حرص الرسول ﷺ منذ هجرته إلى المدينة حتى وفاته على حُسن الجوار والوفاء والصدق في كل ما يُعاهد اليهود عليه، وقد رأينا ذلك واضحًا من خلال التطبيقات الواقعية في حياته ﷺ.

ومن الأهمية بمكان أن نعرف أن صراع المسلمين مع اليهود لم يكن كراهية لعرقهم أو دينهم؛ وإنما كان لما يرتكبونه من مخالفات متكرِّرة، وخيانات عظيمة، يدفعون بها المسلمين دفعًا إلى أخذ مواقف حاسمة معهم، بعد صبرٍ طويل عليهم.

على أنه متى التزم اليهود بما عاهدوا المسلمين عليه، وفَّى المسلمون لهم أتمَّ الوفاء، وكان لهم الأمن والسلام والاستقرار داخل الدولة الإسلامية؛ يعيشون في رحابها، وينعمون بخيراتها، ويحثُّ الإسلام حينئذٍ على الإحسان إليهم، والتواصل معهم في أفراحهم وأحزانهم.

ومن العجيب أنه قد تمَّ تسليط الأضواء وبشدَّة على تلك المواقف الحاسمة التي أخذها المسلمون ضدَّ اليهود في نهاية الأمر؛ في حين تمَّ إغفال جانب عظيم من وفاء الرسول ﷺ وسعة صدره، وصبره الطويل على مخالفات اليهود الصريحة والمتكرِّرَة والمستفزَّة طوال الفترة التي سبقت موقف المسلمين معهم، هذا التسليط للأضواء على تلك المواقف دون غيرها جعل الانطباع العام لدى القارئ لتاريخ المسلمين مع اليهود أنه تاريخ عدائي مليء بالدماء والحروب؛ بينما الواقع غير ذلك تمامًا.

فالرسول ﷺ -كما رأينا- خلال فترات امتدَّت لسنوات عديدة، يُقيم جنبًا إلى جنب مع اليهود، ويفي لهم بكلِّ ما عاهدهم عليه، بل ويزور مرضاهم، ويحترم مشاعرهم الإنسانية، ويحرص تمام الحرص على تفادي الصدام معهم، ويتغاضى عن الكثير ممَّا يُحدثونه من أمور تُوجب عقابهم، ويأمُل من وراء ذلك كله تأليف قلوبهم، وتوفير الأمن والسكينة لهم ولغيرهم.

لقد عاشت الجالية اليهودية في المدينة المنورة أحسن فتراتها في ظلِّ حُكْم الرسول ﷺ، وتعامل المسلمون معهم بالأخلاق الحسنة، وإحسان الظنِّ، والوفاء بالمعاهدة التي كانت بينهم؛ بينما كانوا هم على العكس من ذلك.

كما وفَّى الرسول ﷺ ليهود خيبر أتمَّ الوفاء وأجمله، وعاملهم بالحسنى؛ برغم إرادتهم قتله، وبرغم ما ارتكبوا من جرائم أخرى في حقِّه هو وأصحابه.

إن السمة التي لا يستطيع أحدٌ أن يُنكرها في معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود هي الوفاء التامُّ لهم، وحُسن التعايش معهم، وإرادة الخير لهم.

✍ ولكن سيبقى السؤال الذي يحب المتشككون أن يثيروه دومًا! وهو لماذا حارب الرسول ﷺ كلَّ مَنْ عاهدهم من قبائل اليهود؟ ولماذا عاقب بعضهم بالإجلاء والبعض الآخر بالقتل؟

هذه شبهات يُثيرها البعض حول الدوافع وراء حروب الرسول ﷺ لِمَنْ عاهدهم من قبائل اليهود، ولكن الحقيقة أن اليهود بعد أن عاهدهم رسول الله ﷺ ووفَّى بعهدهم، وأحسن معاملتهم، ما كان منهم إلاَّ الإساءة، ونكران الجميل، ومحاولة تشكيك المسلمين فيما يعتقدونه من الحقِّ، وقد صبر عليهم رسول الله ﷺ كثيرًا، وتغاضى عن الكثير من أخطائهم، ولم يُعاقبهم عليها رغم فداحتها، فإنَّ الأمر بلغ حدًّا لا يُطاق، وأصبح من الحكمة بمكان أن يتمَّ اتخاذ موقف حازمٍ إزاء ما

يفعله اليهود؛ فلقد بدأت قبائلهم في نقض العهود الواحدة تلو الأخرى، فقام يهود بني قينقاع بفعلٍ فاحشٍ تمالَئُوا فيه على الاعتداء على شرف امرأة مسلمة، كانت تشتري من سوقهم بعض حاجتها، كما اجتمعوا على قتل رجل مسلم(١).

واليهود بهذا الفعل الفاحش، وهذه الجريمة النكراء، أصبحوا ناقضين لعهدهم مع رسول الله ﷺ، وقد قَبِلَ الرسول ﷺ بإجلائهم وهو على استطاعة تامَّة أن يقتلهم جميعًا، وما فعله الرسول ﷺ من قبول الاكتفاء بإجلائهم عن المدينة يُعَدُّ عفوًا عظيمًا عن أناسٍ يستحقُّون القتل لنقضهم العهد، واعتدائهم على حرمات المسلمين، وتمالُئِهم على ذلك.

ولم يُؤَاخذ الرسول ﷺ طوائف اليهود الأخرى بفعل إخوانهم من بني قينقاع، مع أنه كان بالإمكان إجلاؤهم أيضًا؛ فجميعهم ينتسب إلى دين واحد، لكن الرسول ﷺ أحسن إلى مَنْ بقي من طوائف اليهود، ومع ذلك قابل يهودُ بني النضير هذا الإحسان بالإساءة، فحاولوا الغدر برسول الله ﷺ وقتله، فبينما كان يجلس بينهم، ذهب أحدهم ليُلقي صخرة من أعلى على رسول الله ﷺ!

إن الخيانة التي تسري في دماء اليهود قد دفعتهم إلى هذه الجريمة التي لا عقاب لها إلاَّ القتل جزاءً وفاقًا، ومع ذلك فقد حقن رسول الله ﷺ دماءهم -بعدما مكَّنه الله ﷻ من رقابهم، وقذف في قلوبهم الرعب- وأجلاهم خارج المدينة، وتلك رحمة غير مسبوقة، ونادرة الحدوث من غير المسلمين في التاريخ البشري.. ولم يُعاقب رسول الله ﷺ بني قريظة مع بني النضير، ولم يُؤَاخذهم بجرم إخوانهم الذين أرادوا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٧، ٤٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٦، وقال أكرم ضياء العمري: وهذه الرواية ضعيفة في إسنادها انقطاع، ثم إنها موقوفة على تابعي صغير مجهول الحال، ولكن يُستأنس بها من الناحية التاريخية؛ فقد أوردتها معظم مصادر السيرة. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٣٠٠، ٣٠١.

قتله؛ فقد كانوا على عهد مع رسول الله ﷺ، أن يدافعوا مع المسلمين ضدَّ أي عدوٍّ يُهاجم المدينة، ولكنْ بنو قريظة خانوا المسلمين في أشدِّ المواقف حرجًا؛ فقد راسلوا الأحزاب المتجمِّعَةَ حول المدينة، والآتية من مكة وما حولها لغزو المدينة واستباحتها، وتأكَّد الرسول ﷺ من صحَّة هذا الأمر؛ فعن سعيد بن المسيب[1] رحمه الله -في سياق قصة الأحزاب-: فبينما هم كذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان يأمنه الفريقان، كان موادعًا لهما، فقال: إني كنت عند عيينة بن حصن وأبي سفيان إذ جاءهم رسول بني قريظة: أن اثبتوا فإنَّا سنُخَالف المسلمين إلى بيضتهم[2]. أي أن اليهود يعِدون الأحزابَ إن خرج المسلمون إلى قتالهم أن يعتدي اليهود على نساء المسلمين وذراريهم وأموالهم؛ وهو معنى مخالفة المسلمين إلى بيضتهم.

فهي إذًا خيانة عظمى من هذه الفئة التي كانت على عهد وميثاق مع الدولة الإسلامية، ثم هي في أحلك الظروف تنقض العهد، وتتعاون مع العدوِّ المهاجم من خارج الدولة؛ فسبب غزوهم هو نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها على المسلمين، فهل يدَّعي أحدٌ بعد ذلك أن العقاب الذي أنزله النبي ﷺ بهم فيه شيء من الإجحاف أو الظلم؟ وماذا لو تمَّ لهم ما أرادوا من

(١) هو سعيد بن المسيب المخزومي القرشي، أبو محمد، وُلِدَ سنة ١٣هـ، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سُمِّي راوية عمر، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥، وأبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ١/ ٥٧.

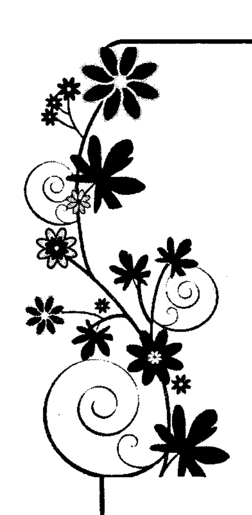
(٢) انظر مصنف عبد الرزاق (٩٧٣٧) ٥/ ٣٦٧، من مرسل سعيد بن المسيب، والرواية صالحة للاحتجاج بها مع المتابعة، وأبو نعيم: من مراسيل سعيد، دلائل النبوة ١/ ٥٠٤، ٥٠٥، وقد جاء من حديث عائشة، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٠٠٨، والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤، ٣٥، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية ٤/ ١٢٥-١٢٨: ولهذا الحديث طرق جيدة عن عائشة وغيرها. وبهذا يكون الحديث حسنًا.

غدر وخيانة للمسلمين؟ إن مصير المسلمين في هذه الحالة -من دون شكٍّ- هو القتل والتشريد وضياع المال والولد والأهل[١].

أمَّا يهود خيبر؛ فقد تحالفوا مع مَنْ جاءهم من يهود بني النضير كحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، وهَوذة بن قيس الوائلي، وخرج هؤلاء إلى قريش يدعونهم إلى التجمع والتحزُّب لاستئصال المسلمين في غزوة الأحزاب، ثم خرجوا إلى غطفان؛ فدعَوْهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، إنْ هم نصروهم، وأخبروهم أنَّ قريشًا قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه. ثم خرجت يهود إلى بني سليم فوعدوهم المسير معهم إذا خرجت قريش[٢].. لقد كانوا -إذًا- العقل المدبِّر لتحالف الأحزاب ضدَّ المسلمين، وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أمر قريش وأمِنَ جانبها بصلح الحديبية تفرَّغ ليهود خيبر وحاربهم.. فهل يُلام رسول الله ﷺ على حربه لمن حزَّب الأحزاب بغرض إبادة جماعية للمسلمين؟!

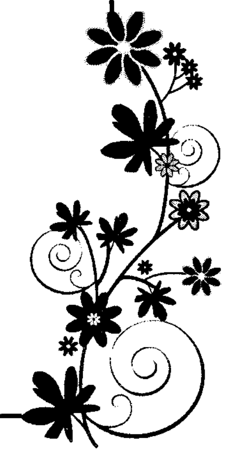
***

(١) انظر ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١١٥، ١١٦.
(٢) انظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤/ ٣٦٤، والديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ١/ ٤٨٠.



الفصل الرابع

معاهدات الرسول ﷺ مع النصـــــارى



الفصل الرابع

معاهدات الرسول ﷺ مع النصارى

ورد في سيرة النبي ﷺ عدة نماذج للمعاهدات السياسية التي أبرمها ﷺ مع بعض الكيانات النصرانية في الجزيرة العربية والشام، ولعلَّ هذه المعاهدات لم تنل شهرة ما وُقِّع مع يهود المدينة؛ نظرًا لأن اليهود كانوا في قلب أحداث السيرة النبوية، بخلاف النصارى وغيرهم.

ومن هنا سنُلقي في هذا الفصل بعض الضوء على تلك المعاهدات التي أبرمها الرسول الكريم ﷺ مع النصارى؛ لنعلم أن حُسن تعامل المسلمين مع غيرهم لم يكن مقصورًا على يهود المدينة؛ بل كان نسقًا مطَّردًا متى استطاعت الدولة المسلمة إلى ذلك سبيلاً.

وسيكون هذا التناول من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: المعاهدات مع أهل دومة الجندل

المبحث الثاني: المعاهدات مع يُحَنَّة بن رؤبة

المبحث الثالث: المعاهدات مع أهل جرباء وأذرح

المبحث الرابع: المعاهدات مع نصارى نجران

المبحث الأول
المعاهدات مع أهل دومة الجندل

تقع (دُومة الجندل) على طريق الشام قريبًا من تبوك، وبينها وبين المدينة قريب من (٤٥٠كم)، وقد اتَّصل منذ سنوات عداؤها للمسلمين، واشتركت في الجموع المتألِّبة على دولة الإسلام، ولعلَّ وراء ذلك العداء بعض الدوافع؛ منها تبعيَّتها للدولة البيزنطيَّة ولاءً وديانةً؛ فقد كان عامَّة أهل تلك المنطقة يدينون بالنصرانية، ومنها كذلك انتماء أهل دومة الجندل إلى بطون قحطانية؛ وهذا ما يُساعد على اندفاعهم عرقيًّا لعداء المسلمين الذين يتَّبعون نبيًّا عدنانيًّا ﷺ، (وخاصة مع تأصُّل اعتبارات التعصُّب القَبَلي في ذلك الوقت).

وعلى كلٍّ؛ فقد اهتمَّ رسول الله ﷺ بسَلِّ ما في صدور أهل دومة الجندل من ضغائن، واهتمَّ بإقرار السلام بينه وبينهم منذ وقت مبكِّر، فأرسل ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف[1] ﷺ في العام السادس من الهجرة على رأس سريَّة إلى دُومة الجندل؛ ليدعو فرع «بني كلب» إلى الإسلام، وهي السريَّة التي انتهت بإسلام ملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي مع خَلْقٍ كثير من قومه، وبقاء طائفة منهم على النصرانيَّة مع الرضا بالجزية، كما تزوَّج ابن عوف ﷺ تماضر بنت الأصبغ عملاً

(١) عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، صحابي، من السابقين الأولين، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، مات سنة ٣١هـ، وقيل: سنة ٣٢هـ، ودُفن بالبقيع. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٩٥-٥٠٥، وابن حجر: الإصابة ٤/ ٣٤٦-٣٤٩.

بوصية النبي ﷺ[١].

وهنا يبدو لنا الرسول ﷺ حريصًا على إحلال السلام والوئام مع هذه القبيلة وغيرها من قبائل العرب، فهو يُرسل إليهم مَنْ يدعوهم، لا مَنْ يسفك دماءهم، وعندما أسلم ملكهم، عمِل على تقوية أواصر الصداقة بينه وبين المسلمين من خلال نصيحته ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ بأن يتزوَّج ابنة سيِّد القوم؛ ليعلم الرجل أن إسلامه لم يزده إلاَّ عزًّا، بمصاهرته لقائد الجيش الذي هو من المقرَّبين للرسول ﷺ، وأحد العشرة المُبَشَّرين بالجنَّة، وهذه الطريقة تفتح الباب أمام كل الزعامات النصرانية للتفكير في الإسلام، أو على الأقلِّ في مسالمة المسلمين؛ لكن مع هذا التقدير من المسلمين لنصارى المنطقة الشمالية، والتي تضمُّ دومة الجندل، وقعت مخالفات خطيرة من هؤلاء النصارى؛ منها ما يلي:

١- أرسل الرسول ﷺ رسالة مع الحارث بن عمير الأزدي إلى هرقل إمبراطور الروم، وقيل: إلى صاحب بُصرَى، ولكن عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني؛ فأوثقه رباطًا، ثم قدَّمه فضرب عنقه[٢].

٢- في أعقاب مقتل الحارث بن عمير الأزدي جهَّز رسول الله ﷺ جيش مؤتة الشهير من ثلاثة آلاف مقاتل، وسمع العدوُّ بخروج جيش المسلمين؛ فتجمَّعت الجموع الهائلة: مائة ألف من الروم، ومائة ألف من نصارى العرب الذين تجمَّعُوا من بطون كثيرة من قبائل: بهراء ولخم وجذام وبلي[٣].. وغيرها، وكلها فروع قحطانية تنتمي لقضاعة وغيرها، وتتشاطر

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦٣١، ٦٣٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٨٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣٤٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٢٨، ٤/ ٣٤٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٩٦، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٣٦، وابن حجر: فتح الباري، ٧/ ٥١١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٧٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤٥٨.

النسب وبنوَّة العمِّ مع فروع أخرى تسكن دومة الجندل، مثل السَّكونيين من بني كِنْدة.

٣- تحالف هذه القبائل مع الروم الذين تجمَّعوا في العام التاسع من الهجرة للهجوم على المدينة المنورة؛ هذا ما دفع النبي ﷺ إلى الخروج لهم في تبوك، وعلى الرغم من قلَّة عدد المسلمين بالمقارنة بأعداد الرومان الهائلة؛ فإن الله ﷻ ألقى الرعب في قلوب الرومان، فتراجعوا إلى الشمال تاركين وراءهم مناطق نفوذهم وحلفاءهم العرب (وفيهم من أهل دومة الجندل) الذين ملأت هيبةُ المسلمين قلوبهم.

لذا لن نتعجَّب عندما نعلم أن رسول الله ﷺ لم يُضَيِّع فرصة تواجده في تبوك في هذا الوقت؛ فبعث سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ إلى ملك دومة الجندل أُكَيْدِر بن عبد الملك السَّكونيّ وكان نصرانيًّا، وأَمَر خالدًا وجنوده قائلاً: «**إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَخْذِهِ فَخُذُوهُ وَلا تَقْتُلُوهُ، وَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِهِ فَاقْتُلُوهُ**». وطمأن رسولُ الله ﷺ خالدًا ﷺ ببشارة نبويَّة أنه سيأخذه وهو: «**يَصِيدُ الْبَقَرَ**»[١]. فكان كما قال ﷺ، وأسره خالد ﷺ، فلما أُتِيَ به إلى النبي ﷺ سجد أُكَيْدر لرسول الله ﷺ، فأومأ إليه النبي ﷺ بيده: «لا، لا». مرَّتين[٢]، وصالحه على الجزية، وحقن دمه، وخلَّى سبيله بعد أن كتب له كتابًا. وليس عندنا نصٌّ صحيح يُورِد ما جاء في هذا الكتاب، وإن كان قد ورد أنه ﷺ صالحه على الجزية مما يُثبت أنه لم يُسلم، وهذا الأمر وإن كان يختلف عليه بعض المؤرخين، فإنَّ عامة أهل السير والمغازي والمحققين يذكرون أن أُكيدر لم يُسلم ألبتة[٣].

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى: كتاب السير، باب عدد السرية (٨٨٣٦)، والبيهقي: السنن الكبرى، (١٨٤٢٢)، وابن عساكر: تاريخ دمشق، ٩/ ٢٠٣.
(٢) المتقي الهندي: كنز العمال بحاشية المسند ٤/ ١٨٩.
(٣) انظر قول ابن حجر: الإصابة ١/ ٣٧٨.

غير أن اللافت للنظر -بكل يقين- هو ذلك الكرم البالغ الذي تعامل به رسول الله ﷺ مع أكيدر عندما وقع في يده أسيرًا بعد تاريخ طويل من العداء والتحريض كما رأينا، فلم يُذِلّ ﷺ كرامتَه، ولم يَرْضَ منه السجود بين يديه، بل حقن دمه، واحترم زعامته، وصالحه صلحًا يحترم فيه المسلمون مصلحة أكيدر وقومه احترامًا بالغًا.

إن قبول رسول الله ﷺ بالصلح بعدما أَسَر أُكيدر يدلُّ دلالة قاطعة على حُبِّه ﷺ للسلام؛ فالرجل في يده ويستطيع قتله، أو التنكيل به، أو إبقاءه أسيرًا واسترقاقه، وجعله مُثْلَةً لقومه ولملوك العرب كافَّة، كما كان يفعل الفُرْس والروم، ولكن الرسول ﷺ يُريد أن تحيا الجزيرة العربية والعالم أجمع في ظلِّ السلام والوئام بعيدًا عن الحروب؛ لذا فقد قَبِلَ بإجراء الصلح مع ملكٍ مهزوم أسير. وقد أثَّر هذا كثيرًا في نفس أكيدر، وتعدَّدت الروايات الصحيحة التي تذكر صورًا من تودُّد أكيدر إلى النبي ﷺ؛ ففي صحيح البخاري عن أنس ﷺ أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ[1]، وروى مسلم في صحيحه عن عليٍّ ﷺ أن أُكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه عليًّا، فقال: «**شَقِّقْهُ خُمُرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ**»[2].

وقد حافظ النبي ﷺ -كعادته- على ذلك العهد، ولم يسمح بارتكاب ما ينقضه؛ فلم تُهاجم سريةٌ من المسلمين هذه البلاد مرَّةً أخرى؛ بل إن هذه البلاد أصبحت مرتكَزًا لانطلاق الجيوش الإسلامية المتجهة لغزو الروم في عهد الصِّدِّيق أبي بكرٍ ﷺ.

---

(١) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٤٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ ﷺ (٢٤٦٩).

(٢) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب (٢٠٧١)، واللفظ له، وابن ماجه (٣٥٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٨٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٤٦٤٧). وأما الفواطم، فقال الهروي والأزهري والجمهور: إنهن ثلاث: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد -وهي أم علي بن أبي طالب ﷺ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي- وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب. انظر: النووي: المنهاج ٧/ ١٥٢.

المبحث الثاني
المعاهدات مع يُحَنَّة بن رؤبة

كان من أصداء قدوم أكيدر دومة الجندل على رسول الله ﷺ بتبوك، وما أظهره الرسول ﷺ من عفوٍ وحُبٍّ للسلام وحقن الدماء؛ أن أتاه يُحَنَّة بن رؤبة ملك أيْلة[١] وما حولها، وكان هو الآخر نصرانيًّا، فقدم على رسول الله ﷺ وهو في تبوك.. وقد روى جابر رضي الله عنه قال: رأيتُ يُحَنَّة بن رؤبة يوم أتى النبيَّ ﷺ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية، فلمّا رأى النبيَّ ﷺ كفَّر[٢] وأومأ برأسه (أي: طأطأ رأسه خضوعًا ووضع يده على صدره)، فأومأ إليه النبي ﷺ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ». وصالحه يومئذٍ وكساه بُردًا يمانيًّا[٣].

إن ما قابل به النبي ﷺ يُحَنَّة لدليل على رغبته ﷺ في إبرام الصلح بالشكل الذي يحفظ كرامة الآخر؛ فقد جاء الرجل مرتديًا صليبًا، ولم يُعَنِّفه رسول الله ﷺ، أو يأمره بخلعه، لكي لا يشعر الرجل أنه في حضرة هرقل مثلاً، بل أمره الرسول ﷺ برفع الرأس؛ دليلاً على رفعة شأنه عند المسلمين؛ فيعلم الرجل أن الصلح مع المسلمين الأقوياء المنتصرين على الروم ليس مذلَّةً ينبغي له ولقومه أن ينقضوه عندما تسنح لهم فرصة، بل هو عهد صادق مع قوم أوفياء يحترمون الآخر، فينبغي

---

(١) أيْلة: هي قرية أم الرشراش المصرية على ساحل البحر الأحمر، والتي يحتلها اليهود، وسمَّوها: إيلات.

(٢) التَّكْفِير: إيماءُ الذمي برأسه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (كفر)، ٥/ ١٤٤.

(٣) انظر البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٨٥، وابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/ ٢٩٠، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٥/ ٤٦٠.

الإسراع بإبرام هذا العهد، والعَضُّ عليه بالنواجذ.

وقد كان نصُّ الصلح كما يلي: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ، ومُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَتُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَهْلِ الْيَمَنِ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ.. وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ.. وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلاَ طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ»(١).

والملاحظ هنا أن الرسول ﷺ أعطى الأمان لسفنهم وسيَّارتهم في البر والبحر، والرسول ﷺ والمسلمون هم خير مَنْ يُوَفِّي بعهده، والمعروف أن أيلة على ساحل البحر الأحمر، ولا بُدَّ أن قومه أو جزءًا منهم على الأقل يعملون بالصيد، والمسلمون حتى هذا الوقت لم يستخدموا البحر إلاَّ في الهجرة إلى الحبشة؛ فالبحر لديهم مجهول، وهم ليسوا بارعين في الإبحار فيه، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ يُحَمِّل نفسه والمسلمين عبئًا خطيرًا ثقيلاً؛ وهو حماية أهل أيلة في البحر، وهذا يقتضي استعداد الرسول ﷺ لبناء أسطول بحري وتجهيزه متى حصل اعتداء على أهل أيلة، وفي ذلك من الجهد والإنفاق الضخم والمخاطرة ما فيه؛ لقد تحمَّل الرسول ﷺ كل هذا العبء من أجل أن يعيش المسلمون مع مَنْ حولهم في أمان وسلام.

كما نلاحظ أن الرسول ﷺ تكفَّل بالسماح لهم بورود كلِّ ماءٍ تعوَّدُوا على وروده، وهذا يقتضي ليس عدم منع المسلمين لهم فقط، بل محاربة أي عدوٍّ آخر يُحاول منعهم عن مصادر المياه، وهذا جهد ضخم، وحِمْل جسيم يتحمَّله ﷺ والمسلمون من أجل إقرار السلام في هذه المنطقة مع قومٍ لا يُؤمنون بالإسلام، ولا بنبيه ﷺ.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٥٢٥، ٥٢٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٨، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٤٦٦، وانظر: ابن زنجويه: الأموال، ٢/ ٤٦٣.

المبحث الثالث

المعاهدات مع أهل جرباء(١) وأذرح(٢)

وبالمثل عامل رسول الله ﷺ نصارى جرباء وأذرح فقد جاء في كتابه ﷺ لهم: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ لأَهْلِ أَذْرُح؛ أَنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ وَمُحَمَّدٍ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةُ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ وَافِيَةً طَيِّبَةً، وَاللهُ كَفِيلٌ عَلَيْهِمْ بِالنُّصْحِ وَالإِحْسَانِ لِلْمُسْلِمِينَ»(٣).

إن رسول الله ﷺ يتحمَّل هنا مسئوليات ضخمة في توفير الأمان لقبائل ضعيفة، قليلة العَدَد، هزيلة الغَنَاء عن المسلمين مقابل مبلغ زهيد لا يُساوي شيئًا؛ وذلك من أجل ضمان السلام مع كل مَنْ يُحيط بالمسلمين.

***

(١) الجرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء قرب جبال السراة من ناحية الحجاز وهي قريبة من أذرح.
(٢) أذرح: مدينة بالبلقاء بين معان وبطرة، وهي اليوم من مدن شرقي الأردن شمالي مدينة معان.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٩٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٣٠.

المبحث الرابع

المعاهدات مع نصارى نجران[١]

تعدَّدت الروايات وتباينت في وصفها لمباحثات وفد نجران مع النبي ﷺ في المدينة عام الوفود، وكان أهلها يدينون بالنصرانية، وقد أرسلوا وفدًا إلى رسول الله ﷺ، وقد جاء هذا الوفد إلى المدينة المنورة بعد أن تلقَّى خطابًا من رسول الله ﷺ يدعوهم فيه إلى الإسلام.

وقد كان الوفد مكوَّنًا من أربعة عشر رجلاً في بعض الروايات[٢]، بينما وصلت روايات أخرى بالوفد إلى ستين رجلاً[٣]، وكان أمير الوفد رجلاً يُدْعَى العاقب، وكان هناك رجلٌ آخر يتولَّى إدارة الرحلة، كانوا يُلَقِّبُونه بالسيد، بينما كان هناك رجل ثالث مسئول عن الأمور الدينية، وهو أسقف الرحلة وحبرها واسمه أبو الحارث، فكان هؤلاء الثلاثة على رأس الوفد، وهم الذين يتولُّون التفاوض.

وقد جاء الوفد في هيئة مُنَظَّمة، وفي صورة مُنَمَّقة لدرجة المبالغة؛ حيث لبسوا الثياب الحريرية، وتحلَّوْا بالخواتم الذهبية، وكان الرسول ﷺ يُحَرِّمُ هذه الأمور على الرجال؛ ولذلك كَرِه الكلام معهم وهم بهذه الصورة، وأَجَّل الحديث معهم إلى اليوم التالي؛ حيث جاءوا يلبسون ثياب الرهبان، فاستقبلهم الرسول ﷺ، ثم قال:

---

(١) نجران: بلد كبير في جنوب مكة في اتجاه اليمن، وكان أهلها على النصرانية قبل الإسلام.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٧٣، ٥٧٥، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٥٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٧٨.

«وَالَّـذِي بَعَثَنِي بِـالحَقِّ، لَقَـدْ أَتَـوْنِي المْرَّة الأُولَى وَإِنَّ إِبْلِيسَ لَمَعَهُـمْ»(١). وبـدأ الحـوار معهم.

كان من الواضح أن الوفد لم يكن في نيَّته أن يُسْلِم، وإنما أتى ليُناظر الرسول ﷺ من ناحية، وليبهره والمسلمين من ناحية أخرى؛ ولذلك كان الحوار معهم على صورة تختلف كثيرًا عن الحوار مع الوفود الأخرى..

لقد عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، ولكنهم رفضوا وقالوا: «كنا مسلمين قبلكم».

وهذه الجملة صحيحة لو كانوا فعلاً مُتَّبِعِينَ لكُتبهم الأصلية دون تبديل أو تحريف، بل قال الله ﷻ في أهل الكتاب الذين يَتَّبِعُونَ الكتاب الصحيح غير المحرَّف:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

ولكن يُشْتَرَطُ لصدق هذه الكلمة أن يَتَّبِعُوا كتابهم غير المحرَّف اتباعًا كاملاً، وفي هذا الكتاب غير المحرَّف بشارة برسولنا الكريم ﷺ، وعلامات واضحة لنبوَّته، وأدلَّة على صدقه؛ لذلك فعلماء اليهودية والنصرانية يعرفون الرسول ﷺ: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، ويعرفون علاماته، ويُوقنون بصدقه، وبوجوب اتِّباعه، لكن يمنعهم الكبر، والمصالح والدنيا، والهوى والحسد.. وأشياء كثيرة؛ ولذلك فهم يُخفون هذه الآيات والدلائل مع علمهم بها، ويَتَّبِعُونَ كُتُبَهم المحرَّفة بدلاً من اتباع الرسول الصادق ﷺ.

لذلك أنكر ﷺ مقولتهم هذه، وذكر لهم أنهم يُحَرِّفون دينهم في أمور كثيرة،

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ١٠٣، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ٦/ ٤١٧.

وهذا التحريف يتنافى مع الإسلام؛ لأن الإسلام معناه أن يُسْلِمَ الإنسانُ نفسَه تمامًا لله ﷻ، ولتشريعاته وقوانينه، ولا يُسْلِمَ نفسَه لأهوائه الشخصية، أو مصالحه الخاصَّة؛ قال ﷺ: «**يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ ثَلاَثٌ: عِبَادَتُكُمُ الصَّلِيبَ، وَأَكْلِكُمْ لَحْمَ الخِنْزِيرِ، وَزَعْمُكُمْ أَنَّ للهِ وَلَدًا**»(١). فهذه أمور ثلاثة حرَّفتموها في الإنجيل، ولم تُسْلِموا فيها لله ربِّ العالمين، ولا يستقيم أن تُطْلِقوا على أنفسكم «مسلمين» قبل أن تتركوا هذا الاعتقاد الفاسد.

وكثُر الجدال بينهم وبين الرسول ﷺ، وكثر إلقاء الشبهات والردّ عليها؛ وكان ممَّا قالوه: «ما لك تشتم صاحبنا -يقصدون عيسى عليه السلام - وتقول: إنه عبد الله!» فقال ﷺ: «**أَجَلْ، إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءَ الْبَتُولِ**»(٢).

وهذا ليس انتقاصًا أبدًا من عيسى عليه السلام، بل العبودية لله تشريف، وهو رسول من أولي العزم من الرسل، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم عليها السلام، والتي نُكَرِّمُهَا -أيضًا- ونُجِلُّهَا، وننفي عنها أي شبهة سوء، فنقول: إنها مريم العذراء البتول.

لكن النصارى يُبالغون في تكريم المسيح عليه السلام، حتى خرجوا به عن طبيعته إلى طبيعة أخرى؛ فقالوا: هو الله. وقالوا: هو ابن الله. وقالوا: ثالث ثلاثة.

وكلها مبالغات غير مقبولة، وعقيدة فاسدة، دفعهم إليها الحبُّ الزائد، والتقديس الزائد عن الحدِّ المطلوب؛ ولكون النصارى في وفد نجران لا يتنازلون عن هذا الاعتقاد،

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٧٥، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٤٨، والواحدي: أسباب النزول ص١٠٤، وقال الحميدان: يتقوى بشواهده.

(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/ ٢٩٣، وجلال الدين السيوطي: الدر المنثور ٢/ ٢٢٨، والواحدي: أسباب النزول، ص١٠٤، وقال سراج الدين: أجمع المفسِّرون على أن هذه الآية -إنَّ ﴿ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾[آل عمران: ٥٩]- نزلت عند حضور وفد نجران. وذكر القصة، انظر: اللباب في علوم الكتاب، ٥/ ٢٧٩.

فإنهم غضبوا من وصف عيسى عليه السلام بالبشريَّة والعبودية، وقالوا: هل رأيت إنسانًا قَطُّ من غير أبٍ؟! فإن كنتَ صادقًا فأَرِنا مثله؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يَوْمِي هَذَا، فَأَقِيمُوا حَتَّى أُخْبِرَكُمْ بِمَا يُقَالُ فِي عِيسَى عليه السلام». فأصبح الغد، وقد أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١][(١)]. فجاء الجواب من عند رب العالمين تبارك وتعالى مباشرة في بضع وثمانين آية من أوائل سورة آل عمران.

وفي هذا -بلا شكٍّ- حُجَّة بالغة أمام قوم يفهمون معنى الوحي الإلهي، ويُعَظِّمون نزول كلام من عند الله؛ فالنصارى لا يُنكرون أن آدم عليه السلام خُلق من غير أب ولا أُمٍّ، وهذا في كُتبهم، فإن كان الله عز وجل قادرًا على خلق آدم عليه السلام بدون أب أو أُمٍّ، أَفَيعجز تبارك وتعالى أن يخلق عيسى عليه السلام بأمٍّ وبلا أب؟! إن العقل يقبل ذلك تمامًا، لكن الذي لا يقبله العقل أن يكون الإله بشرًا، يأكل ويشرب وينام، ويُخرِج ويُصاب بالألم ويُجرح.. بل -في عُرف النصارى- يُقتل ويُصلب! ليس من المعقول أن يكون الإله بهذه الصورة التي يعتريها الضعف البشري، ولكن المعقول والمقبول أن يكون البشر كذلك؛ وليس هذا تقليلاً من قيمة عيسى عليه السلام، بل هو من أولي العزم من الرسل، وآية الله وكلمته، وفَرْضٌ على المسلمين أن يُؤمنوا به، وبنبوَّته، وبعظمته، ونُبْلِه.

ولكن هذا الكلام المنطقي لم يُقنع النصارى، أو قُلْ: لم «يُعجب» النصارى. ووصلت المحاورة إلى طريق مسدود؛ ومن ثَمَّ دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة التي

(١) الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٣/ ٨٣، والواحدي: أسباب النزول ص١٠٤، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٥٤٩.

أشارت إليها الآيات السابقة، وهي طريقة فريدة فيها ثقة شديدة بالله ﷻ، ويقين كامل بالحقِّ الذي مع رسولنا ﷺ؛ فهو يقول لهم: ليجمعْ كلُّ فريق منَّا أهله، ثم يقف أمام الفريق الآخر وجهًا لوجه، يبتهل كلٌّ منهما إلى الله تعالى أن يُنزِلَ لعنته على مَنْ يَكْذِب ويُنكر الحقَّ، فلو كانوا يعتقدون اعتقادًا جازمًا أن الحقَّ معهم، وأن محمدًا ﷺ ليس برسول، فلا ينبغي أن يخافوا من هذه المباهلة أو الملاعنة، ولَمَّا غدا عليهم أخذ بيد حسن وحسين وفاطمة تمشي خلفه للملاعنة[١].

ولأن نصارى وفد نجران يعلمون أنه الحقُّ، فقد أشفقوا على أنفسهم من موقف المباهلة، حتى قال بعضهم لبعض: «ما بَاهَلَ قومٌ نبيًّا إلاَّ هلكوا»[٢]. فهم على يقين -إذًا- أنه ﷺ نبي! وزاد في رواية ابن مسعود: «فأَتَيَاه فقالا: لا نُلاعنك، ولكن نُعطيك ما سألتَ»[٣].

فصالحهم ﷺ على الجزية، بعدما تحمَّل كِبْرَهم وإعراضهم؛ رغم أنهم الذين جاءوا للصلح، وأنهم ليسوا أهل قوَّةٍ، ولو شاء الرسول ﷺ أن يُحاربهم؛ لأرسل إليهم جيشًا كبيرًا، ولكنه ﷺ يُريد إرساء قواعد السلام بين المسلمين وسائر الأمم، القريب منها والبعيد.

عهد النبي ﷺ لأهل نجران:

كتب ﷺ كتابًا لأهل نجران، وَرَدَ بروايات مختلفة؛ منها هذه الرواية: «بِسْمِ الله

(١) الحاكم (٤١٥٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢/ ٧٧٦، وابن أبي شيبة: المصنف ٦/ ٣٧٩ (٣٢١٨٤)، ٧/ ٤٢٦ (٣٧٠١٤)، وابن حجر: فتح الباري ١٢/ ١٩٥.

(٢) النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ١٥٨، والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/ ٤٦.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، (٤١١٩)، والنسائي (٨١٩٦)، وأحمد (٣٩٣٠)، والحاكم (٥١٦٢).

الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ للأَسْقُفِ أَبِي الحَارِثِ، وَأَسَاقِفَةِ نَجْرَانَ وَكَهَنَتِهِم وَرُهْبَانِهِمْ، وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، جِوَارُ الله وَرَسُولِهِ، لا يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ مِنْ أَسْقفتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ، وَلاَ يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلاَ سُلْطَانِهِم، وَلاَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، جِوَارُ الله وَرَسُولِهِ أَبَدًا مَا أَصْلَحُوا وَنَصَحُوا عَلَيْهِمْ، غَيْرَ مُبْتَلَيْنَ بِظُلْمٍ وَلاَ ظَالِمِينَ»[(١)].

وفي هذا العهد من التسامح والإنصاف ما فيه، وخاصة بعد ما كان من تعاليهم السابق أمام النبي ﷺ، ورفضهم الانصياع للحقِّ بعدما علموه، وقد طلب وفد نجران من النبي ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أمينًا ليقبض منهم الجزية، فقال ﷺ: «**لأبْعَثَنَّ معكم رجلاً أمينًا حَقَّ أَمِينٌ**». فاستشرف لهذه المكانة أصحابُ الرسول ﷺ، فقال ﷺ: «**قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ**». فلما قام، قال ﷺ: «**هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»[(٢)]. وهذا معناه أن النبي ﷺ قد وضع المعاهدة موضع التنفيذ، وأنه لا يكتب المعاهدات لينقضها بل لِيُنَفِّذها ويُديمها، على عكس الكثيرين من الأمم القوية غير المسلمة التي قد تُقيم العهود في لحظات ضعفها، ثم تنتهكها عند أول بادرةٍ لتفوُّقها على عدوِّها، فتعمل على إقرار وضعٍ جديد بسلاح القوَّة، ولو كان الغدر هو سبيلها إلى ذلك.

ولا بُدَّ قبل أن نغادر قصة عهد النبي ﷺ لنصارى نجران أن نُشير إلى موقف باهر وقع خلال زيارتهم للمدينة، فقد ذكر ابن إسحاق أنه لَمَّا قَدِمَ وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يُصَلُّون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعُوهُمْ**». فاستقبلوا

---

(١) والبيهقي: دلائل النبوة ٥/ ٣٩١، وابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٦٧، والصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ٦/ ٤٢٠، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٥٤٩.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٤١١٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سيدنا أبي عبيدة بن الجراح (٢٤١٩).

المشرق، فَصَلَّوْا صَلاتَهُمْ[(١)].

إنه التسامح في أجلى مظاهره، وأدقِّ تفاصيله؛ إذ دخلوا المسجد النبوي وأقاموا فيه صلاتهم على طريقتهم دون منع أو إكراه، وهم في موقف ضعفٍ والمسلمون في موقف قوَّة، ولم يخافوا على أنفسهم أو ممتلكاتهم، وهم يُعلنون عقيدتهم وعبادتهم في عقر دار الإسلام، بل في مقرِّ عبادة المسلمين، ودار حكمهم! ووالله ما كان لمثل هذا الموقف أن يقع إلاَّ من رسول الإسلام ﷺ[(٢)].

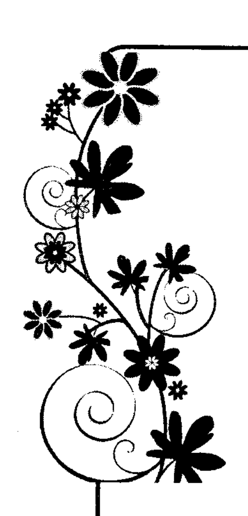
ولقد ظلَّ ذلك العهد قائمًا، لم ينقضه أحد، وظلَّت العلاقات طيبة بين أهل نجران والمدينة المنورة حتى وفاة الرسول ﷺ.

* * *

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٠٨، وابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/ ٣٥٧، والبيهقي: دلائل النبوة ٥/ ٣٨٢، والكلاعي: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ١/ ٣١١، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٥٤٩، ٥٥٠.

(٢) فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص١١٦، ١١٧، بتصرف.



الفصل الخامس

معاهدات الرسول ﷺ مع المشركين

الفصل الخامس

معاهدات الرسول ﷺ مع المشركين

لم تكن فكرة التعاهد والتفاوض والتعايش مع المشركين بعيدة عن ذهن الرسول ﷺ ولا غريبة عليه، وهذا قد يستغربه كثير من المحللين؛ لأن الأيديولوجية[1] المشركة مختلفة تمام الاختلاف عن العقيدة الإسلامية؛ ومن ثَمَّ يُصبح مفهوم التعايش بين الطائفتين مستحيلاً في أذهان الكثيرين.

لكن واقع حياة رسول الله ﷺ يُشير إلى رغبته الصادقة في التعايش السلمي مع مَنْ حوله من الطوائف على اختلاف عقائدهم، حتى يصل الأمر إلى التعايش مع أولئك الذين يسجدون للأصنام من دون الله، أو يعبدون نجمًا أو شجرًا أو غير ذلك.

ومن أهمِّ صور هذا التعايش السلمي المنشود:

عقدُ المعاهدات والمواثيق، بل والتحالف أحيانًا في سبيل تحقيق المصلحة في قضية مشتركة؛ وهذا الفكر القائم على حُبِّ السلام والرغبة فيه، لم يكن نتيجة رؤية ويلات الحروب، أو مصائب المعارك؛ إنما هو فكر أصيل حرص عليه رسول الله

(١) الأيديولوجيا: العقيدة السياسية أو الفكرية؛ وهي مجموعة من الأفكار تُشَكِّل رؤية متماسكة شاملة وطريقة لرؤية القضايا والأمور اليومية.

ﷺ من أول يوم صارت له فيه دولة.

وسنتناول -بإذن الله- في هذا الفصل طرفًا من معاهدات الرسول ﷺ مع المشركين؛ وذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: معاهداته ﷺ مع القبائل حول المدينة

المبحث الثاني: معاهداته ﷺ مع قريش (صلح الحديبية)

المبحث الثالث: معاهداته ﷺ مع قبائل الجزيرة العربية الأخرى

المبحث الأول

معاهداته ﷺ مع القبائل حول المدينة

لقد أوردت كتب السيرة كنوزًا عدَّة من أمثال هذه المعاهدات والأحلاف؛ وكان منها -على سبيل المثال- المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع بني ضَمْرَة[١]، وكان على رأسهم آنذاك «مخشي بن عمرو الضمري»، وفيها -كما تقول الرواية[٢]-: وادعهم رسول الله ﷺ. وانظر إلى هذه الكلمة: (الموادعة)[٣]، وما تحمله من معاني السلم والسكينة والهدوء والأمان..

وكانت هذه الموادعة في صفر سنة (٢هـ)[٤]، أي بعد أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ؛ مما يُوَضِّح وجود هذا الفكر التعايشي من بداية نشأة الدولة الإسلامية.

وكذلك وادع رسول الله ﷺ بني مُدْلِج، والذين يعيشون في منطقة ينبع، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة[٥].

وفعل الشيء نفسه -أيضًا- مع قبائل جهينة، وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال

---

(١) بنو ضمرة: قبيلة من بطون عدنان، تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٩١، ٢/ ٢١٠، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢/ ٤٠٣، ٥٥٩، والكلاعي: الاكتفاء، ١/ ٣١٧، وابن كثير: السيرة النبوية، ٢/ ٣٥٦.

(٣) الموادعة: المصالَحَةُ والمُمايَلَةُ. انظر لسان العرب ٣/ ٤٣٩، وتاج العروس ١/ ٢٣٦٦، ومختار الصحاح ١/ ٧٤٠.

(٤) ابن حبان: السيرة النبوية ١/ ١٥٧، وابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٩١.

(٥) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٥٩٩، وابن كثير: السيرة النبوية، ٢/ ٣٦٢، ٣٦٣.

الغربي للمدينة المنورة[١].

لقد حاول رسول الله ﷺ أن يعيش هو والمسلمون في جوٍّ هادئ مسالم مع مَنْ يُجاورونهم من القبائل والبطون، ولم يَسْعَ إلى قتال قط، بل كان دائمًا مُؤْثِرًا السلم على الحرب، والوفاق على الشقاق.

* * *

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٤.

المبحث الثاني

معاهداته ﷺ مع قريش (صلح الحديبية)

وإذا كانت كل هذه المعاهدات وغيرها تتشابه مع بعضها البعض من حيث النصوص والأهداف والنتائج المترتِّبَة عليها، فإن هناك معاهدة مهمة تختلف عن تلك المعاهدات جميعًا، وتحتاج منَّا إلى وقفة وتحليل؛ تلك هي معاهدة «الحديبية»..

إن معاهدة (صلح الحديبية) من أهم المعاهدات، ليس في تاريخ رسول الله ﷺ فقط، وإنما في كل التاريخ الإسلامي، بل والإنساني بصفة عامَّة؛ وذلك للآثار الهائلة التي ترتَّبت على هذه المعاهدة..

ولشدَّة أهمية هذه المعاهدة فسنُفَصِّل فيها قليلاً؛ وذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: الطريق إلى صلح الحديبية:

لسنا في هذا الكتاب بصدد تحليل كل جزئيات المعاهدة ولا آثارها، ولكننا سنقف فقط على ما يُشير إلى فكر رسول الله ﷺ التصالحي، ورغبته الأكيدة في العيش في سلام مع كل البشر، حتى مع مَنْ أذاقوه وأذاقوا أصحابه العذاب ألوانًا..

ولكي نفهم مدى سماحة الفكر الإسلامي وحُبِّه للسلام.. ولكي نُقَدِّر مدى عظمة الخُلُق النبوي وسموِّه لا بُدَّ من مراجعة سريعة لقصَّة قريش مع رسول الله ﷺ والمسلمين..

إن القصة -حقيقةً- ليست بخافية على أحدٍ..

إنها قصة الظلم والقهر في أبشع صوره..

إنها قصة مصادرة الآراء والفتنة في الدين والعقيدة..

إنها قصة البطش واستكبار القوَّة..

تسعة عشر عامًا كاملة من التعامل بين رسول الله ﷺ وقريش سبقت صلح الحديبية، والذي كان في أواخر العام السادس من الهجرة[١].. وهذه السنوات الطويلة انقسمت في الأساس إلى مرحلتين رئيستين؛ هما: مرحلة مكة ومرحلة المدينة..

أمَّا مرحلة مكة فلم يكن للمسلمين فيها دولة؛ بل لم يكن مشروعًا لهم -أساسًا- أن يُدَافعوا عن أنفسهم بالسلاح أو بالقتال.. فكان العدوان من جانب واحدٍ، وكان القهر والبطش والتعذيب في كل لحظات فترة مكة تقريبًا، وتعدَّدت صور هذا البطش من إيذاء باللسان إلى إيذاء بالسياط والسنان، ومن حصار في الشعب إلى طرد من الديار، ومن سرقة للأموال إلى إزهاق للأرواح..

لقد كانت فترة أليمة حقًّا في تاريخ الإنسانية..

ثم هاجر رسول الله ﷺ -مضطرًا- إلى المدينة المنورة. وهاجر أصحابه معه، وتركوا كل شيء وراء ظهورهم.. تركوا الأهل والعشيرة، وتركوا الأموال والثروات، وتركوا الديار والأعمال، وتركوا الذكريات والعلاقات..

تركوا كل شيء، ويَمَّموا شطر المدينة المنورة..

ولم يكن هذا الخروج من مكة ليصرف قريشًا عن متابعة الأذى والاضطهاد للمسلمين؛ فقد توالت المراسلات بين مشركي قريش ومشركي المدينة، وكذلك بين

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨.

مشركي قريش ويهود المدينة، كما تمَّ ذلك -أيضًا- مع الأعراب حول المدينة.. كلُّ هذا بهدف حصار المسلمين والتضييق عليهم في أعمالهم ومعاشهم وإقامتهم..

ودارت مناوشات عديدة بين الطرفين الكافر والمسلم، ليس المجال يسمح بِتَتَبُّعها، غير أن الصدام كان في أقصى وأقسى درجاته في ثلاث مواقع متتالية.. بدر وأُحُد والأحزاب..

وكما قال ربُّنا:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فكان يوم بدر للمسلمين، وكان يوم أُحُد للمشركين، والحرب سجال..

ثم كانت غزوة الأحزاب الفاصلة، حيث استطاعت قريش أن تجمع عشرة آلاف مقاتل من أبنائها، ومن القبائل المتحالفة معها وعلى رأسها «غطفان»، وذلك بهدف استئصال المسلمين من جذورهم، وتدمير المدينة المنورة على رءوس أهلها..

لقد كان أخطر تجمُّع عرفته الجزيرة العربية حتى تلك اللحظة..

وترك هذا التجمُّع آثارًا شتَّى في نفوس الصحابة ﷺ، فهم مع شدَّة إيمانهم بالله، وقوَّة يقينهم في النصر إلاَّ أنَّ الخوف الفطري تسلَّل إلى قلوبهم، وإن لم يكن مانعًا لهم عن الصمود والمواجهة.

يُوَضِّح ذلك ربُّ العالمين، الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ويُبَيِّن ذلك في كتابه فيقول:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

واستمرَّت تلك الأزمة شهرًا كاملاً[١]، والمسلمون في أشدِّ حالات الخوف والجوع والبرد كما يُصَوِّر حذيفة بن اليمان ﷺ في روايته لقصَّة الأحزاب[٢]، وازدادت الكارثة ضراوة بخيانة بني قُريظة كما هو معروف، وكان المسلمون قاب قوسين أو أدنى من النهاية والفناء.

ثم أَذِنَ الله ﷻ للغُمَّة أن تنكشف، وللأحزاب أن يرحلوا، وللمسلمين أن يخرجوا من أزمتهم فائزين منتصرين..

وبدأت كفَّة الصراع تميل بوضوح لصالح المسلمين، وعبَّر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله الموفَّق والعميق:

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»[٣].

لقد ضعفت شوكة المشركين بعد هذه الموقعة، وزالت هيبتهم في الجزيرة العربية، وتضاءل عدد حلفائهم، ومن ثَمَّ أخذ نجمهم في الأفول، وبدأت دورتهم في الحياة تَتَّجه إلى السقوط..

والمسلمون على الجانب الآخر قويت شوكتهم، وعزَّ جانبهم، وقدَّرَ قُوَّتَهُمْ وشأنَهُمُ القاصي والداني؛ وقد ساعد على تأكيد هذه الصورة أن الرسول ﷺ أخرج (بعد غزوة الأحزاب في أواخر العام الخامس من الهجرة، وكذلك في العام السادس الهجري) عدَّةَ بُعُوثٍ وسرايا تهدف إلى توطيد الأمن في الجزيرة، ولعقاب مَنْ تعدَّى

---

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٢٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٩٠، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٥٧٢.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨)، ورواه ابن حبان في صحيحه (٧١٢٥).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٨٤)، عن سليمان بن صرد، وأحمد (١٨٣٣٤)، والطبراني: المعجم الكبير (٦٤٨٤).

على المسلمين، حتى وصلت غزواته وسراياه إلى مشارف العراق والشام كما حدث في دومة الجندل(١).

كان هذا هو الوضع في أواخر العام السادس من الهجرة..

في هذه الأجواء سيتمُّ صلح الحديبية، ولن تَسْتَوْعِبَ عظمةَ أخلاق الرسول ﷺ وحُبَّه للسلام، إلاَّ بدراسة الخلفية التي مررنا بها، فلا يُنكر أحدٌ أن نفسية المسلمين تجاه المشركين في مكة لا بُدَّ أن تكون قد بلغت أشدَّ حالات الحنق والغيظ والكراهية؛ فهذه تسعَ عشرةَ سنةً كاملة من الظلم والعداوة كما رأينا، كما أن مشاعر الانتقام لا بُدَّ أن تكون متأجِّجَة الآن، وبخاصَّة بعد توفُّر القوَّة في أيدي المسلمين، وانسحاب البساط من تحت أقدام المشركين..

هذا هو الوضع المتوقَّع.

لكننا مع كل ذلك سنُشاهد من رسول الله ﷺ سلوكًا وأداءً لا يُمكن تفسيره؛ إلاَّ بأنه سلوك رسولٍ من عند الله تعالى.. وأنه ﷺ قد بُعِثَ رحمةً للعالمين.. إذ كيف يكون اتِّسَاع الصدر إلى هذه الدرجة مع كل ما مرَّ بنا من آلامٍ سَبَّبَهَا المشركون للمسلمين؟! وما لم نذكره -ولا شَكَّ- أكثر وأعظم!

لقد رأى رسول الله ﷺ في الرؤيا أنه يذهب إلى مكة هو وأصحابه معتمرين.. ومكة الآن في أيدي المشركين، والمشركون الآن ضعفاء نسبيًّا، والمسلمون في قوَّة متزايدة، فهل يُجَهِّز جيشًا، ويذهب إلى مكة ليقوم بالعمرة تحت حماية السلاح؟ أم هل يغزو مكة فيقتلَ مَنْ يقتلُ، ويَأْسِرَ مَنْ يَأْسِرُ، ويردَّ الأموال المسلوبة، والديار المنهوبة؟

---

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين نجد وبلاد الشام قرب تبوك، والحصن هو حصن أُكيدر الكندي، وتتصل به عين التمر. انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٢٤٥.

هل يستعدي القبائل المختلفة، والحلفاء من هنا وهناك على القرشيِّين، وينزل فيستبيح بيضتهم[1]، ويُذهب هيبتهم، ويُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ، ويُفَرِّقَ جَمْعَهُمْ؟!

إن شيئًا من هذا لم يخطر على بال رسول الله ﷺ..

إنما فَكَّرَ أن يذهب إلى عقر دار المشركين في سكينة وسلام لِيُؤَدِّيَ مناسك العمرة التي أُرِيَهَا في الرؤيا، ثم يعود إلى المدينة المنورة دون قتال ولا نزال..

هذا ما فَكَّرَ فيه حقيقةً، وطَبَّقه على أرض الواقع بكل وسيلة ممكنة، ولم ينظر مطلقًا إلى أن ميزان القوى أصبح يميل لصالح المسلمين، ولم ينظر إلى أنَّ المسلمين مظلومون سنوات وسنوات، ولم ينظر إلى التاريخ الحربي الطويل الذي دفع فيه المسلمون أثمانًا غالية وتضحيات هائلة، ولم ينظر إلى عشرات الشهداء الأحباب الذين سقطوا بسيوف ورماح القرشيين.

لم ينظر إلى كل ذلك..

إنما نظر فقط إلى أنه من «المحتمل» أن توجد فرصة -ولو ضئيلة- لإقامة جسور التفاهم والتعايش والتصالح مع مشركي مكة، حتى وهم على شركهم!

نظر رسول الله ﷺ إلى الأمر بأرقى نظرة حضارية يمكن أن يتخيَّلها إنسان.. إنه لا يُريد لعدوِّه أن يفنى أو ينهار، ولا يُريد لعدوِّه أن تسيل دماؤه، أو أن تُدَمَّرَ دياره؛ إنما يُريد أن يتعايش معه في سلام ووئام.. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦].. فلنتصالح، ولنتَّفق على حُسن الجوار، حتى وإن اختلفت العقائد، وصار الفرق بينها كما بين السماء والأرض، أو أبعد..

ولأجل تطبيق هذا المعنى النبيل فإنه ﷺ قد أخذ من التدابير والاحتياطات ما

(١) أي يستأْصلهم ويهلكهم جميعهم، والبيضة أصل القوم ومُجْتَمعُهم، فَبَيْضَةُ الدار وسطها ومعظمها، وبَيْضَةُ الإِسلام جماعتهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب (مادة بيض) ٧/ ١٢٢.

يضمن له وصول هذا الشعور إلى القرشيين، إنه لا يُريد القتال فعلاً، ولا يُوجد مكان في قلبه ولا في عقله لما يُسَمِّيه الناس «الانتقام»!

ماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد خرج ﷺ من المدينة على رأس ألف وأربعمائة[١] من الصحابة الكرام ﷺ، ولم يَخرُج بكلِّ طاقة المدينة المنورة، والتي كانت تزيد على ثلاثة آلاف يوم الأحزاب، ثم إنه لم يخرج إلاَّ بسيف المسافر فقط، وساق أمامه الهَدْيَ[٢] الكثير ليُثبت للجميع أنه ما ذهب إلاَّ للعمرة، وعند ذي الحليفة[٣] أحرم، وأحرم معه كلُّ الصحابة، وانطلقوا في التلبية طوال الطريق[٤].

إنها مظاهرة إيمانية رائعة لا تُخطئها عين، ولا تخفى على جاسوس.. إن الغرض أن تعرف قريش وحلفاؤها أن الرسول ﷺ لا يُريد الحرب، وإنما جاء للعمرة، وقد تعامل رسول الله ﷺ مع الأمر في منتهى سلامة النيَّة، وحُسن المقصد، فلم يُرسل من صحابته إلى مكة مَنْ يُفاوض، أو مَنْ يُهدِّد أو يتوعَّد، إنما سار على القانون العامِّ للجزيرة العربية، بل القانون الحاكم لقريش ذاتها، والذي يُعطي الحقَّ لأي إنسان أن يَحُجَّ البيت الحرام أو يعتمر، بل كانت قريش تتيه على غيرها من القبائل أنها ترعى زوَّار البيت الحرام وتخدمهم وتسقيهم.

وأرسل رسول الله ﷺ عينًا له تكشف الطريق، وتعرف هل ستتفهم قريش

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٣٩٢٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب استجباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، (١٨٥٦).

(٢) الهدي: ما يُهدى إلى الحرم من النَعَم وغيرها.

(٣) ذُو الحُلَيْفَة: موضع على مقدار ستة أميال من المدينة مما يلي مكة، وهو ميقات للمدينة والشام. كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٩٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٩٥.

موقف المسلمين السلمي، ورغبتهم الشرعية والطبيعية في زيارة البيت الحرام، أم أنها ستتكبَّر وتطغى، وتُخالف أعرافها وأعراف الجزيرة العربية فتمنع المسلمين من العمرة؟! وكان هذا العين هو بشر بن سفيان الخزاعي[١].. الذي ما لبث أن عاد إلى رسول الله ﷺ يحمل الأخبار السيئة!

قال بشر بن سفيان: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، خرجت على العُوذِ المطافيل[٢]، قد لبسوا جلود النمور، يُعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبدًا، وهذا خالد بن الوليد[٣] في خيلهم قدموا إلى «كراع الغميم[٤]»[٥].

إن قريشًا -وكذلك طُلاَّب الدنيا- لا يُريدون في الأرض سلامًا ولا أمنًا.. وإن وصل الأمر إلى أن يكسروا هم بأنفسهم قوانينهم وشرائعهم!

لكن رسول الله ﷺ لم يُسْتَفَزَّ بذلك، إنما قال في هدوء:

«يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ.. مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ؛ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ»[٦].

---

(١) بشر بن سفيان الخزاعي: وقيل: بسر بن سفيان، وهو الذي بعثه النبي ﷺ إلى بني كعب ليستنفرهم لغزو مكة هو وبديل بن أم أصرم، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني كعب من خزاعة، وكان عين النبي ﷺ في الحديبية انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٦٦، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٧٧، وابن حجر: الإصابة ١/ ٤٢٤.

(٢) سارت قُرَيْشٌ بالعُوذ المطافِيل؛ أي: الإبل مع أولادها، والعُوذ: الإبل التي وَضَعَت أولادها حَدِيثًا، والعوذ المطافيل: يُريد النساء والصبيان. انظر: ابن منظور: لسان العرب (طفل) ١١/ ٤٠١.

(٣) وكان آنذاك مشركًا.

(٤) كُراع الغَمِيم: موضع معروف بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، والغميم وادٍ، والكُرَاع جبل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (كرع) ٨/ ٣٠٦، وياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٤٤٣.

(٥) مسند أحمد (١٨٩٣٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والطبراني: المعجم الكبير، ٢٠/ ٩.

(٦) مسند أحمد (١٨٩٣٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والطبراني: المعجم الكبير، ٢٠/ ٩.

انظر إلى المنطق الرائع، والسلاسة في العرض والوضوح في الرؤية..

إنه يعيب على قريش تشوُّقها المستمرِّ للحرب، وعنادها الذي لا ينقطع، ثم يقول في حكمة بالغة: إنها لو رضيت بمسالمتي وترك الحرب معي، والاكتفاء فقط بانتظار ما تُسفر عنه حرب بقية العرب لي لكانت النتيجة إحدى ثلاث:

إمَّا أن ينتصر عليَّ العرب، ويتحقَّق مراد قريش دون جهد تبذله، وإمَّا أن يكتشفوا عظمة الإسلام فيُسلموا دون حرب، ودون فَقْدِ قَتْلَى أو أموالٍ، وإمَّا أن يستمرُّوا على كفرهم فيُقاتلوني بعد ذلك وقد أنهكتني الحرب، وما زالت بهم قوة!

إن الرأي السليم، والمنطق الحكيم لا بُدَّ وأن يدفع قريشًا للتصالح مع ابنها البارِّ رسول الله ﷺ؛ لكن قريشًا في ذلك الوقت كانت تَتَّبع هواها وشياطينها؛ ومِن ثَمَّ آثرت الحرب على السلام، وهذه قمَّة السفاهة والحماقة.

ومع كل هذه الرغبة المكية في الحرب واستمرار العداء، إلاَّ أن الرسول ﷺ لم تغب عنه الرؤية السلمية، لقد اكتشف مكان خالد بن الوليد؛ ومِنَّ ثم أشار على المسلمين باتخاذ طريق آخر وعر أشار عليه به رجل من قبيلة أسلم[1]، وبذلك تجنَّب -ولو مؤقتًا- الصدام مع المشركين، ولم يكن هذا من خوف أَلَمَّ به ﷺ؛ فالذي يخاف من جيش لا يقرب قاعدته الأصلية -وهي مكة- إنما كان ذلك ليتفادى الحرب قدر استطاعته[2].

ووصل رسول الله ﷺ بالمعتمرين إلى الحديبية[3]، وأسرع خالد بن الوليد

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٠٩، والكلاعي: الاكتفاء ١/ ٤٦٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٣١٤.

(٢) محمود شيت خطاب: الرسول القائد، ص١٨٦، ١٨٧.

(٣) الحديبية: هي قرية سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وفي الحديث أنها بئر، وبعض الحديبية في الحِلِّ وبعضها في الحرم، وعند مالك بن أنس أنها جميعها من الحرم. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩، والبكري: معجم ما استعجم ٢/ ٤٣٠.

بفرقته إلى أهل مكة ليُحَذِّرهم.

وعند الحديبية حدث أمر عجيب.. لقد وقفت ناقة رسول الله ﷺ، وامتنعت عن السير، فحاول الناس زجرها بقولهم: «حل.. حل[١]..». إلاَّ أنها أصرَّت على الوقوف! فقال الناس: «خلأت القصواء!»[٢]. فقال رسول الله ﷺ: «**مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**». ثُمَّ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»[٣].

لقد أعلن رسول الله ﷺ نهجه السلمي، وتوجُّهه التصالحي بأوضح صورة ممكنة؛ لقد أقسم أنه سيقبل بأي خُطَّة تُعَظَّم فيها حرمات الله ﷻ، ويقصد بذلك أيَّ خُطَّة تحفظ البلد الحرام، وتحفظ الدماء، وتحفظ الأعراض، حتى لو كان فيها شيء من التنازل، كما سيتبين بعد ذلك من الأحداث.

هذا هو منهجه ﷺ، وهذا هو فكره بخصوص التعايش مع المخالفين له في العقيدة، بل والمحاربين له، والمانعين إيَّاه من دخول البيت..

وقريش ما زالت في غَيِّهَا تَعْمَهُ!

* * *

(١) كلمة تُقال عند زجر الدابة.

(٢) خلأت: أي امتنعت عن المشي، والقصواء هي ناقة رسول الله ﷺ.

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، أبو داود (٢٧٦٥)، وأحمد (١٨٩٣٠)، وابن حبان (٤٨٧٢).

المطلب الثاني: مفاوضات صلح الحديبية:

لقد بعثت قريش الرسل إلى رسول الله ﷺ تترى، وهدفهم جميعًا هو التخويف والإرهاب، ومحاولة الصدِّ عن البيت الحرام دون قيد أو شرط.. لكن كل ذلك ما كان ليَسْتَفِزَّ رسول الله ﷺ، بل إنه في صراحة أعلن لبُدَيْل بن ورقاء الخزاعي[(١)] - وهو أوَّل الرسل الذين جاءوه من قريش- أنه يُريد الصلح والمعاهدة..

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا[(٢)]، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي[(٣)] وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ**»[(٤)].

إنه يستخدم أكثر من وسيلة لِتَجنُّبِ القتال، ولِطَلَبِ الصُّلح والموادعة..

إنه يُصَرِّح بذلك في البداية: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ**».

ثم يُوَضِّح السبب الشرعي والقانوني للقدوم: «**وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ**».

ثم ينصح قريشًا ألا تُبَدِّدَ طاقتها في حروب متكررة: «**وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ**

---

(١) بديل بن ورقاء الخزاعي: أسلم يوم فتح مكة، وذكر ابن إسحاق أن قريشًا يوم فتح مكة لجئوا إلى داره ودار مولاه رافع، وشهد بديل وابنه عبد الله حُنَيْنًا والطائف وتبوك، وكان بديل من كبار مسلمة الفتح، وقيل: أسلم قبل الفتح. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٥٠، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٥٩، وابن حجر: الإصابة ١/ ٤٠٨.

(٢) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب.

(٣) تنفرد سالفتي؛ أي: يَنْقَطِع عنقِي.

(٤) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وابن حبان (٤٨٧٢)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٨٥٨٧).

الحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ».

ثم يطلب الصلح صراحةً: «فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً».

وهو عرض صريح منه ﷺ للصلح مع قريش؛ ومن هنا أجاز الفقهاء أن يبدأ المسلم بعرض الصلح، حتى إن ابن القيم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» أحصى من الفوائد الفقهية لصلح الحديبية: «جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدوِّ إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه»[(١)].

ثم توالت الرسل؛ وجاء «عروة بن مسعود الثقفي»[(٢)]، وقال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قاله لبديل، وبعد حوار طويل عاد إلى أهل مكة مقتنعًا برؤية رسول الله ﷺ للأمور، فقال لهم: «وإنه -أي رسول الله ﷺ- عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقْبَلُوهَا»[(٣)].

لكن قريشًا رفضت اقتراح عروة، وأرسلت رسولاً ثالثًا هو «الحُلَيْس بن علقمة»[(٤)]، فبعث رسول الله ﷺ في وجهه الهَدْيَ، وقد كان من قوم يُعَظِّمُونَها، واستقبله المسلمون بالتلبية، فعاد متأثِّرًا بما رآه، ناصحًا قريشًا أن تترك المسلمين

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٧٠.

(٢) هو عروة بن مسعود بن ثقيف، وهو مِمَّنْ أرسلته قريش إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، أعلن إسلامه أمام قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، وقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم، فادفنوني معهم. فدفنوه معهم. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٧٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٥٢٧).

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).

(٤) الحليس بن علقمة الحارثي، من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أُحُد، وكان مع مشركي قريش.. انظر: ابن ماكولا: الإكمال ٢/ ٤٩٦، ٤٩٧، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٧٠.

يعتمرون.. ولكن قريشًا رفضت للمرَّة الثالثة، وأرسلت «مِكْرَز بن حفص»[١]، فلم يصل إلى نتيجة أخرى..

وقد حاولت مجموعة من رجال وشباب مكة أن يُوقفوا هذه المباحثات؛ كرهًا منهم للصلح ورفضًا لدخول رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا، فقامت هذه المجموعة -وعددها ثمانون- بالإغارة على المسلمين في الحديبية لإشعال الحرب الفعلية، فماذا حدث؟!

يروي أنس بن مالك ﷺ أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلِّحين، يُريدون غِرَّةَ[٢] النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سِلْمًا[٣]، فاستحياهم[٤]، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٤][٥].

فهؤلاء ثمانون مغامرًا أرادوا إفساد أي محاولة للصلح، فماذا فعل رسول الله ﷺ؟! لقد أطلقهم جميعًا بغير فداء! وذلك إثباتًا لحسن النوايا، وسلامة الصدر.

ثم قرَّر ﷺ أن يُرسل رسولاً إلى قريش؛ لعرض وجهة النظر الإسلامية، وبعد محاورات بين المسلمين تمَّ اختيار عثمان بن عفان ﷺ ليكون سفيرًا للمسلمين إلى

(١) هو مكرز بن حفص بن الأخيف بن عامر بن لؤي، القرشي العامري، ذكره ابن حبان في الصحابة، وقال: يُقال: له صحبة. وذكره المرزباني في معجم الشعراء ووصفه بأنه جاهلي، ومعناه أنه لم يُسلم، وإلاَّ فقد ذكر هو أنه أدرك الإسلام، وقدم المدينة بعد الهجرة لَمَّا أُسر سهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه، وله ذِكْر في صلح الحديبية في البخاري. انظر: ابن حجر: الإصابة، ٦/ ١٦٣ الترجمة رقم (٨٢١١)، والزركلي: الأعلام ٧/ ٢٨٤.

(٢) الغِرَّة: الغفلة.

(٣) سلمًا: ضبطوه بوجهين: الأول: سَلَمًا ومعناه أسرهم، والثاني: سلْمًا ومعناه الصلح.

(٤) استحياهم؛ أيِ: استبقاهم وتركهم أحياءً ولم يقتلهم.

(٥) مسلم: في كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٤] (١٨٠٨)، والترمذي (٣٢٦٤)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والنسائي (٨٦٦٧)، وأحمد (١٤١٢٢).

مكة، وبالفعل دخل عثمان ﷺ إلى البلد الحرام، ودارت بينه وبينهم مفاوضات، ولكن هذه المفاوضات طالت دون نتيجة حتى مرَّت عدَّة أيام، وأُشيع أن عثمان ﷺ قد قُتِل، وقَتْلُ السفراء جريمة لا تُغتفر، وهو إعلان حرب رسمي، وهنا اضْطُرَّ رسول الله ﷺ اضطرارًا إلى القيام بها عُرِفَ في التاريخ ببيعة الرضوان؛ حيث بايع الصحابة على عدم الفرار(١)، ومِنْ ثَمَّ أصبح القتال وشيكًا جدًّا، لولا أن عثمان ظهر في هذه اللحظة، وثبت أن الأمر كان مجرَّد إشاعة، فهدأت النفوس واستراحت، ثم ظهر رسولٌ جديد من قِبَل قريش هو سهيل بن عمرو(٢).

لقد أصرَّ رسول الله ﷺ على الصلح بكل طريقة، وقريش -كما نرى- تأبى، إلاَّ أن قريشًا في النهاية بدأت تتراجع، وكان بداية هذا التراجع هو إرسال سهيل بن عمرو، وهو قياديٌّ كبير في مكة، ومشهور بالدبلوماسية والقدرة على التحاور، وليس حادًّا في طباعه كبعض الزعماء الآخرين؛ حتى إن رسول الله ﷺ عندما رآه قال: «**قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»(٣). وبالفعل.. وكما توقَّع ﷺ؛ فقد أراد سهيل أن يُتِمَّ الصلح بين قريش والمسلمين، ولكنه أظهر في أثناء الصلح تشدُّدًا وتعنُّتًا، بينما ظهرتْ في بنود الصلح وطريقة كتابته مرونةُ الرسول ﷺ ورغبتُه الأكيدة في الصلح.

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال... (١٨٥٦-١٨٥٨)، والحديث عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضًا معقل بن يسار، والترمذي (١٥٩١)، والنسائي (١١٥٠٩)، وأحمد (١٤٨٦٥).

(٢) هو سهيل بن عمرو بن لؤي بن غالب، خطيب قريش ومن أشرافها في الجاهلية، أُسِرَ يوم بدر كافرًا، فقال عمر ﷺ: «يا رسول الله؛ انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا». فقال ﷺ: «دَعْهُ؛ فَعَسَى أَنْ يَقُومَ مقَامًا تَحْمَدُهُ». وعندما ارتدت بعض الأعراب قام خطيبًا -وكان قد أسلم- فقال: «والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتدُّ امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها». انظر: ابن حجر: الإصابة (٣٥٦٩)، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

(٣) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأحمد (١٨٩٤٨)، وابن حبان (٤٨٧٢).

ولنراجع الرواية التي شرحت موقف كتابة المعاهدة لنُدرك مدى رغبة رسول الله ﷺ في إقرار المعاهدة:

فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**». قال سهيل: أمَّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنتَ تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلاَّ: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «**اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**..» ثم قال: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**...». فقال سهيل: والله لو كنَّا نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْنَاكَ عن البيت ولا قَاتَلْنَاكَ، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي.. اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**...» (قال الزُّهْرِيُّ: وذلك لقوله ﷺ: «لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»). فقال له النبي ﷺ: «**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ**». فقال سهيل: والله لا تَتَحَدَّثُ العرب أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولكنْ ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منَّا رجل وإنْ كان على دينك إلاَّ رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كذلك إذ دخل أبو جَنْدَلِ بن سهيل بن عمرو يَرْسُفُ[1] في قُيُودِهِ، وقد خرج من أسفل مكة حَتَّى رَمَى بنفسه بين أَظْهُرِ المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أَوَّلُ ما أُقَاضِيكَ عليه أن تَرُدَّهُ إليَّ. فقال النبي ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**».

قال: فوالله إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ على شيء أبدًا! قال النبي ﷺ: «**فَأَجِزْهُ لِي**». قال: ما أنا بِمُجِيزِهِ لك. قال: «**بَلَى فَافْعَلْ**». قال: ما أنا بفاعلٍ.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِمًا؟! ألا

(١) يرسف: الرسف هو مشي المُقَيَّد.

تَرَوْنَ ما قد لَقِيتُ؟! وكان قد عُذِّبَ عَذَابًا شديدًا في الله(١).

فالرسول ﷺ -كما رأينا- يتنازل عن كتابة البسملة كاملة في أول العهد، ويتنازل عن كتابة وصف نفسه بالرسالة، ويَقْبَلُ أن يعود من هذا العام فلا يطوف بالبيت، ويقبل أن يَرُدَّ مَنْ جاءه مسلمًا من أهل مكة إذا طلب أولياؤه ذلك؛ بل ويتفاقم الأمر كثيرًا عندما يأتي أبو جندل بن سهيل بن عمرو ﷺ، وهو في حالة شديدة من الإعياء والإجهاد والمعاناة يطلب النصرة من المسلمين، فيطلبه رسول الله ﷺ من سهيل بن عمرو -وهو أبو أبي جندل- فيرفض سهيل، ويُعَلِّقُ نجاح المفاوضات بكاملها على أخذه لهذا الفتى المسلم المُعَذَّب، وأمام مخاطر فشل المعاهدة يُوافق رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يتمَّ الصلح برغم كل ما نراه من أزمات ومعوقات، وبرغم اعتراض كثير من الصحابة، وفي مقدِّمتهم عمر بن الخطاب ﷺ.. ويتحقَّق ما يُريده رسول الله ﷺ، وتُوَقَّع المعاهدة من نسختين يحتفظ كلٌّ من الطرفين بنسخة عنده.

ومن الجدير بالذكر أن بنود المعاهدة شملت أيضًا: وضع الحرب بين الفريقين لمدَّة عشر سنين(٢)، وأن القبيلة التي تُريد الانضمام إلى طرف من الطرفين فلها ذلك، وتُجْرَى عليها أحكام المعاهدة؛ وقد انضمَّتْ قبيلة خزاعة إلى حلف رسول الله ﷺ، بينما انضمَّت قبيلة بني بكر إلى حلف قريش.

وبعد أن تمَّت المعاهدة ورضي الطرفان، أرادت من جديد مجموعة من شباب قريش المتحمِّسين أن يُفسدوا هذا الصلح، فقاموا بعملية إغارة جديدة على المسلمين، ولكنَّ المسلمين استطاعوا -بفضل الله- أن يُمسكوا بسبعين منهم على

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأحمد (١٨٩٤٨)، وابن حبان (٤٨٧٢).

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣١٨، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦٣٦، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٦٠-١٦٢.

رأسهم رجل يقال له: مكرز، كما أمسك سلمةُ بن الأكوع[١] ﷺ بأربعة آخرين، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ قد عفا عنهم جميعًا بغير فداء[٢]!

خلاصة القول في هذه النقطة أن رسول الله ﷺ تغلَّب على معوقات كثيرة جدًّا لكي يتمَّ الصلح في النهاية، ولكي يُمَهِّدَ لفترة تعايش سلمي في الجزيرة العربية، تنعم فيها الأطراف المسلمة والمشركة بالأمان والسلام.

المطلب الثالث: التطبيقات العملية لبنود صلح الحديبية:

يأتي في تحليلنا لهذه المعاهدات مع المشركين ما هو أَهَمُّ من بنودها وكيفية صياغتها؛ وهو التطبيق الفعلي لهذه المعاهدات، فكم من المعاهدات كُتِبَتْ في التاريخ! وكم من المواثيق عُقِدَت، ثم صارت مع مرور الأيام حبرًا على ورق، ولم يعد هناك أي معنى لوجودها أو لعقدها!

إن أروع ما في معاهدات رسول الله ﷺ هو الجانب العملي التطبيقي الذي تلا كتابة هذه المعاهدات؛ إنك سترى في حياته ﷺ مع مَنْ عاهدهم كلَّ معاني التآلف والعدل والتراحم والبرِّ والعدل والوفاء، وأرقى صور الأخلاق السامية.

إنه يكفي للدلالة على هذا الوفاء في التعاهد أن نذكر قصة أبي بصير ﷺ..

لقد جاء أبو بصير[٣] -وهو رجل من قريش دخل في الإسلام- إلى المدينة

---

(١) هو: سلمة بن عمرو بن الأكوع، كان مِمَّنْ بايع تحت الشجرة، سكن بالربذة، وكان شجاعًا راميًا سخيًّا خيِّرًا فاضلاً، وتوفي بالمدينة سنة ٧٤هـ عن ٨٠ سنة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٢٩٨، وابن حجر: الإصابة الترجمة (٣٣٨٥).

(٢) القصة في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها (١٨٠٧).

(٣) هو عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي، مشهور بكنيته، هرب من الكفار في هدنة الحديبية إلى رسول الله ﷺ، فطلبته قريش ليردَّه الرسول ﷺ إليهم، ولَمَّا علم أن الرسول ﷺ سيردُّه خرج إلى سِيفِ البحر، واجتمع إليه كلُّ مَنْ فرَّ من المشركين. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٤٥، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٥٤، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (٥٣٩٨).

المنورة بعد فترة وجيزة من كتابة صلح الحديبية، وكان يُريد أن ينضمَّ إلى الصفِّ المسلم فرارًا بدينه من أهل الكفر بمكة، ولكن القرشيين أرسلوا في طلبه رجلين إلى رسول الله ﷺ، فقالا له: العهد الذي جَعَلْتَ لنا. فدفعه إلى الرجلين(١).. أرأيت مثل هذا الوفاء؟!

إنه يردُّ مسلمًا جاءه إلى المدينة المنورة، والمدينة أحوج ما تكون إلى الرجال والجند، والرجل مسلمٌ قد يُفْتَنُ في دينه ويُعَذَّب، ومع ذلك يردُّهُ لأن بنود المعاهدة نصَّت على ذلك، وليس له إلاَّ الوفاء.

وقد تعجَّب أبو بصير ﷺ نفسه من ردِّ فعل الرسول ﷺ، فقال متسائلاً: يا رسول الله؛ أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟!

قال ﷺ: «**يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا**»(٢).

إن الوفاء بالعهد ليس اختيارًا من الاختيارات عند المسلمين.. إنه واجب لازم، وفريضة حتمية..

وتسلَّم الرجلان القرشيان أبا بصير ﷺ بالفعل، وفي الطريق إلى مكة استطاع أن يحتال عليهما، فقتل واحدًا منهما، وفَرَّ الآخر!

تُرى.. إلى أين يفرُّ المشرك الآخر؟!

لقد فرَّ إلى المسجد النبوي!

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢٥٨١)، وأحمد (١٨٩٤٨)، وابن حبان (٤٨٧٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٣٢٣، والطبري: تاريخ الرسل والملوك٢/ ٦٣٨، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/ ١٦٩.

فرَّ إلى رسول الله ﷺ!

فرَّ إلى الرجل الذي يعلم أنه سيجد عنده الأمان والسلام، حتى ولو كان الذي يُطارده مسلمًا، حتى ولو كان هو من الكافرين!

إنها آية من الآيات!

دخل الرجل المشرك المسجد النبوي يَعْدُو، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ أشفق عليه، وقال: «**لقد رأى هذا ذعرًا**». فلمَّا انتهى الرجل إلى النبي ﷺ قال: قُتل صاحبي، وإني لمقتول! فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد -والله- أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: «**وَيْلُ أُمِّهِ! مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**»[1]. أي أن هذا الرجل سيُشعل حربًا لو كان معه رجال.

فلمَّا سمع أبو بصير ﷺ هذه الكلمات أدرك أن الرسول ﷺ سيردُّه إلى المشركين؛ لكي لا تشتعل الحرب، فخرج من المدينة مسرعًا، حتى أتى منطقة سِيف البحر[2]، وعسكر هناك، وبدأ يقطع الطريق على قوافل قريش، وقريش لا تقدر عليه، ولا تستطيع أن تلوم رسول الله ﷺ؛ لأنه ليس تحت سيطرته، وسمع بمكانه مسلمون آخرون في مكة، فقرَّرُوا أن يلتحقوا به ليكونوا له عونًا على قطع الطريق على قوافل مكة، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو، ولحق به سبعون آخرون من المسلمين الذين لا يستطيعون اللحاق بالمدينة لشروط المعاهدة، ولا يستطيعون البقاء في مكة لتعذيب الكفار لهم، وازدادت حدَّة الصدام بشدَّة بين هذه المجموعة المسلمة وبين

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢٥٨١)، وأحمد (١٨٩٤٨)، وابن حبان (٤٨٧٢).

(٢) سِيف البحر: أي ساحله، وهذا المكان عينه ابن إسحاق فقال: «حتى نزل العِيص»، قال: وكان طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام. وقال ابن حجر: وهو يحاذي المدينة إلى جهة الساحل. انظر: فتح الباري ٨/ ٢٨٣.

قوافل قريش.. حتى اضطُرَّت قريش أخيرًا إلى أن تذهب إلى رسول الله ﷺ، وترجوه أن يُلْحِقَ هؤلاء به[١]، ولأن الرسول ﷺ يُريد حقيقةً أن يتعايش في سلام مع مَنْ حوله من المشركين فإنه قَبِلَ بذلك، وضمَّهم إليه، ولو شاء لتركهم يُنَغِّصون على قريش حياتها، ويُضعفون قوَّتها، ويستنْزِفون ثرواتها، ولكنه كان يتعامل مع قريش في صفاء نفس لا يُدركه إلاَّ مَنْ عرف رسول الله ﷺ.

وبعد إلغاء هذا البند من المعاهدة نعمت المنطقة بسلام حقيقي، وحرص رسول الله ﷺ على تجنُّب إيذاء قريش بأي صورة من الصور؛ حتى يضمن استمرار المعاهدة لأطول فترة ممكنة، ولعلَّ ما يُثْبِتُ هذا الأمان الفعلي ما رواه البخاري ومسلم أن أبا سفيان كان في تجارة إلى الشام بعد زمان الحديبية، ودار بينه وبين هرقل حوار طويل سأله فيه هرقل عن رسول الله ﷺ، وعن صفته وعن أخلاقه[٢].

فهذا أبو سفيان وتجار معه يُسافرون في أمان إلى الشام مع أن طرق التجارة تمرُّ بالمدينة، وتخوض في أعماق الصحراء في أماكن كثيرة تحت سيطرة المسلمين، لكنه الوفاء الذي لا حَدَّ له..

وقد كان من أسئلة هرقل المباشرة لأبي سفيان وهو يسأل عن رسول الله ﷺ أن قال: هل يغدر؟ قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مُدَّةٍ، لا ندري ما هو صانع فيها[٣].

فأبو سفيان مع كونه مشركًا في ذلك الوقت، ومعاديًا للرسول ﷺ، وكارهًا له،

---

(١) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، (٢٥٨١)، وأحمد (١٨٩٤٨)، وابن حبان (٤٨٧٢).

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في المغازي، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣).

(٣) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في المغازي، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣).

وغير مقتنع بنبوَّته إلا أنه في هذا الجانب لا يستطيع أن يقول غير الحقيقة، فوفاء الرسول ﷺ ظاهر لا جدال فيه، كما يتضح من حوار أبي سفيان مع هرقل.. لقد دار هذا الحوار في أعقاب صلح الحديبية وقُبَيْلَ فتح مكة، مما يُؤَكِّد مدى الأمن الذي توفَّر لقوافل قريش، ومدى الوفاء الذي كان عليه المسلمون.

وعلى الرغم من تصاعد قوَّة المسلمين العسكرية بشكل لافت للنظر، وعلى الرغم من الانتصارات المتكرِّرَة هنا وهناك، وبخاصة انتصار المسلمين على يهود خيبر، وعلى الرغم من عالمية الإسلام في تلك الفترة، ومراسلة زعماء وملوك العالم ودعوتهم للإسلام، على الرغم من كل هذا التقدُّم والتفوُّق فإن المسلمين ما فكَّروا في غزو مكة أو إيذاء أهلها، وما فكروا حتى في استرداد أموالهم المسلوبة هناك؛ لأنهم ملتزمون تمامًا بعهدهم.

ولقد مرَّت الأيام سريعًا، وجاء الوقت المحدَّد للعمرة المتفق عليها في صلح الحديبية، وهي العمرة التي تمَّت في أواخر العام السابع من الهجرة وعُرِفَتْ بعمرة القضاء[(١)].

وخرج رسول الله ﷺ في ألفين من أصحابه، وحمل معه سلاحًا كثيفًا، وأخذ عُدَّةَ حربٍ كبيرةً تحسُّبًا لأي خيانة من قريش، ولكنه كان ينوي دخول مكة -كما اتفق مع أهلها العام الماضي- بسلاح المسافر فقط، ورأت عيون قريش الأسلحة فَفَزِعَتْ، وأرسلت وفدًا برئاسة «مِكْرَز بن حفص» ليستوضحوا حقيقة الأمر، فقابلوا رسول الله ﷺ في بطن يأجج[(٢)] بمر الظهران، فقالوا له: يا محمد؛ والله ما عرفناك صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر.. تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطتَ ألاَّ تدخل إلاَّ على العهد، وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها؟!

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٣٧٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤٢٨.
(٢) بطن يأجج: موضع قرب مكة على بُعد ثمانية أميال منها.

لقـد وصـلت قـريش إلى حالـة مـن الضـعف لا تسـتطيع فيهـا أن تُواجـه قـوَّة المسلمين، فكان هذا الفزع من القوَّة الإسلامية، وكان من الممكن أن يستغل رسـول الله ﷺ هذا الفزع والهزيمة النفسية، وكان من الممكن أن يستغلَّ اقترابه مـن مكـة إلى هـذه الدرجـة، وهـو في ألفين مـن رجالـه مـدجَّجِينَ بالسـلاح، كـان مـن الممكـن أن يستغلَّ ذلك كله في غزو مكة بحُجَّة استرداد الحقوق، أو بحُجَّة المعاملة بالمثل جـزاء حصار الكفار للمدينة في غزوة الأحزاب؛ كان من الممكن كلُّ ذلك، لو كـان القائـد غـير رسـول الله ﷺ، ولـو كـان الشرع الحـاكم غـير الإسـلام.. إن المسـلمين عنـد عهودهم مهما كانت الظروف؛ ولذلك أجاب رسول الله ﷺ في ثقة: «**لا نَـدْخُلُهَا إِلاَّ كَذَلِكَ**». وسمع مِكْرَز الكلمة وطار مسرعًا إلى مكة يقـول لهـم: إن محمـدًا لا يـدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم[1]. لقد قال مِكْرَز هذه الكلمات وهو على يقين من تحقُّقها، وما دام قد قال ﷺ فلا شَكَّ أنه صادق.

ووضع رسول الله ﷺ السلاح خارج مكة، وتـرك معـه محمـد بـن مسـلمة[2] في مائتي فارس لحمايته، ودخل هو وبقية الصحابة لأداء العمـرة بالسـيوف في أغمادهـا كما وَعَدَ.. وكان الاتفاق على أن تُخْلِيَ قريشٌ مكة بكاملها للمسلمين مـدَّة ثلاثـة أيـام كاملة لأداء مناسك العمرة، وقـد تـمَّ ذلـك، ووقـف المشركـون عـلى رءوس الجبـال المحيطة يُشاهدون مناسك العمرة طِبْقًا للشرع الإسلامي.

وتمَّـت العمـرة المباركـة، وارتاحـت قلـوب المسـلمين برؤيـة الكعبـة والطـواف حولها، ومرَّت الأيام الثلاثة بسرعـة، وفي آخرهـا تـزوَّج رسـول الله ﷺ مـن ميمونـة

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٢١، وانظر: ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤٣٦.

(٢) هو محمد بن مسلمة بن خالد الأنصاري الأوسي، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلاَّ تبـوك؛ لأن الرسول ﷺ استخلفه على المدينة فيها، واستعمله عمر بـن الخطـاب رضي الله عنه على صـدقات جهينـة، وكان صاحب العمال أيام عمر، مات بالمدينة (سنة ٤٦ أو ٤٧هـ). انظر: ابـن عبـد الـبر: الاسـتيعاب ٣/ ٤٣٣، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٣١٨، وابن حجر: الإصابة الترجمة (٧٨٠٥).

بنت الحارث العامرية الهلالية[١] رضي الله عنها، وهي خالة خالد بن الوليد من كبار زعماء قريش، وأخت أُمِّ الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عَمِّ الرسول ﷺ، ولهذا الزواج بُعْدٌ سياسي واضح؛ فخالد بن الوليد ليس قائدًا هامشيًّا في مكة، بل هو أعظم قُوَّادها العسكريين مُطلقًا، وكان من الواضح أنَّ حِدَّة طباع خالد قد خَفَّتْ مع المسلمين جدًّا بعد وقعة الحديبية؛ لِمَا رآه من أحوالهم، ومن إحساسه أنهم مُؤَيَّدُون بقوَّة خارقة لا يعرفها، حتى إنه يوم الحديبية يصف الرسول ﷺ وجيش المسلمين بقوله: «الرَّجُلُ مَمْنُوعٌ»[٢].

لقد غَيَّرَت الأحداث نفسية وسلوك خالد بن الوليد، وزواج رسول الله ﷺ من خالته سوف يُقَرِّبُ منه أكثر وأكثر، ولو حدث وأسلم خالد فإن هذه ستكون إحدى الضربات القاضية للكفر وللكافرين، وسبحان الله! فقد أسلم خالد رضي الله عنه بعد شهور قليلة من عمرة القضاء مُثْبِتًا بذلك عمق نظرة رسول الله ﷺ.

وبعد انتهاء الأيام الثلاثة المحدَّدة للعمرة جاء سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى موفدين من قِبَل قريش لحثِّ الرسول ﷺ وأصحابه على الخروج؛ فقالوا له بغلظة: إنه قد انقضى أجلك؛ فاخرج عنا. فأراد ﷺ أن يتلطَّف معهم بالرغم من جفائهم، فقال لهم: «**وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ[٣] بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ؟**»[٤].

---

(١) ميمونة بنت الحارث العامرية الهلالية زوج النبي ﷺ، تزوَّجها سنة ٧هـ، تُوُفِّيَتْ (٥١هـ) بسَرَفٍ في الموضع الذي بنى بها فيه رسولُ الله ﷺ، وصلَّى عليها ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة، ٦/ ٢٧٥، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (١١٧٧٢).

(٢) البيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٣٤٩، وابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥١، والبداية والنهاية ٤/ ٢٧٢.

(٣) أعرست: أتممت العرس على ميمونة رضي الله عنها.

(٤) الحاكم (٦٧٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٧٢، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٢٥.

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يكون طبيعيًّا تمامًا في تعامله معهم؛ بل أراد أن يكون ودودًا كريمًا مضيافًا يدعوهم إلى طعامه وشرابه واحتفاله بعُرسه، متناسيًا تمامًا تاريخهم الأسود معه.

أراد كل ذلك، وأرادوا هم غير ذلك!

لقد رَدُّوا عليه في جفاء الأعراب: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنَّا[١]!

ورغم هذه المعاملة الجافَّة، ورغم قوَّة المسلمين وضعف الكافرين، فإن رسول الله ﷺ احترم عهده وميثاقه، وخرج دون مماطلة، وانطلق دون تباطؤ إلى المدينة المنورة.

وكان رسول الله ﷺ لا ينهى المسلمين عن استقبال ذويهم من المشركين، واستضافتهم في المدينة، وقبول هداياهم، كما حدث مع أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عندما سألتْ رسول الله ﷺ عن صلة أُمِّها المشركة، فقال لها ﷺ بإيجازٍ بليغٍ: «صِلِيهَا»[٢].

بل حدث منه ﷺ ما هو أعظم وأجَلُّ مِن هَذا!

فعندما أسلم «ثمامة بن أُثَال»[٣] رضي الله عنه -وكان من سادات بني حنيفة، ومن كبار تجار القمح فيها- أقسم ألاَّ تصل حبة حنطة منه إلى المشركين في مكة؛ لأنهم آذوا رسول الله ﷺ، إلاَّ أن يأذن رسول الله ﷺ، قال ثمامة: لا وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ

(١) السابق.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين (٢٤٧٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣).

(٣) ثمامة بن أثال بن النعمان اليمامي الحنفي (ت ١٢ هـ=٦٣٣م): أُتي به النبي ﷺ أسيرًا، فحبسه وتركه، فأسلم، وثبت على إسلامه لمَّا ارتد أهل اليمامة، وارتحل هو ومَنْ أطاعه من قومه فلحقوا بالعلاء الحضرمي، فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٦٣-٣٦٥.

حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ[١].

وبلغ الجهد بقريش، فمكة -كما هو معروف- بلاد جبلية صحراوية ليس فيها إمكانيات الزراعة، وتعتمد اعتمادًا كليًّا على ما كان يأتيها من ثمامة بن أثال ﷺ.

وصمدت مكة حينًا، ولكنها ما لبثت أن انهارت، وأسرعت تجري إلى المدينة المنورة، متنازلة عن كبريائها وغطرستها، راجية من رسول الله ﷺ أن يأذن لثمامة بن أثال في أن يبيع لهم الحنطة؛ قال زعماء مكة لرسول الله ﷺ:

«إنك تأمر بصلة الرحم»!

فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يُخَلِّيَ بينهم وبين الحمل إليهم[٢]!

وهذا والله من عجائب السيرة النبوية!

إن الذي فعله ثمامة بن أثال ﷺ ليس فيه خطأ شرعي حتى يُنهَى عنه، وليس مخالفًا للأعراف؛ فمن ذا الذي يبيع ويشتري بنفس راضية مع مَنْ ظلَمه وقهَره وبطش به وحاربه الأعوام تلو الأعوام؟! وما فعله ثمامة تضحية كبيرة بثروات عظيمة كدليل على صدق إيمانه، وما فعله ثمامة سيُؤَثِّر سلبًا على كفار مكة فتخف حدَّة جيوشهم، وتضعف قوَّتهم، بل قد يُفَكِّرون في الإسلام.. هذا الدين الذي دخله الآن القاصي والداني، وهذا الدين الذي أعزَّه الله ﷻ، وكثَّر أتباعَه، وبسط له الأرض هنا وهناك.

كل ذلك كان من الممكن أن يحدث نتيجة المقاطعة الاقتصادية التي قام بها

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، (٤١١٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، (١٧٦٤). والحنطة: القمح.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦٣٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٩٢، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٥٥٠، وصحح الألباني سند كتابة النبي ﷺ لثمامة، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ٥/ ٤٢.

ثمامة بن أثال ﷺ، لكنَّ رسول الله ﷺ لم ينظر إلى كل هذه المصالح، إنه لم ينظر بعين السياسي الذي ينتهز الفرص؛ إنما ينظر بعين الداعية الذي يرجو الهُدى للعالمين، ونظر بعين الواصل الذي يُريد أن يصل رحمه، حتى وإن كانت هذه الرحم تقطعه.

لقد قال ﷺ من قبل كلامًا أغلى من الذهب، وكانت حياته تطبيقًا واقعيًّا لكلِّ كلمة قالها؛ لقد قال قبل ذلك: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»(١).

لقد كانت حاله كذلك مع مشركي مكة في أثناء عهده لهم..

ولَمَّا جاءه فرسان مكة وقوَّادها ليُعلنوا إسلامهم بين يديه، استقبلهم أعظم استقبال، ورحَّب بهم أجمل ترحيب؛ لقد جاءه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص(٢) وعثمان بن طلحة(٣) ليُعلنوا إسلامهم بعد شهور قليلة من عمرة القضاء، وقيل: في شهر صفر من السنة الثامنة من الهجرة(٤). فما ذكَّرهم أبدًا بتاريخهم العدائي معه، بل قال ﷺ لصحابته يُعلِي من شأن هؤلاء العظماء: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، (٥٦٤٥) عن عبد الله بن عمرو ﭭ، وأبو داود (١٦٩٧)، والترمذي (١٩٠٨)، وأحمد (٦٥٢٤)، وابن حبان (٤٤٥).

(٢) عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، كان معدودًا من دهاة العرب وشجعانهم وذوي آرائهم، وهو الذي أرسلته قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليرُدَّ عليهم مَنْ هاجر مِنَ المسلمين إلى بلادهم، أسلم قبل الفتح سنة ٨هـ، وفتح مصر في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وَوَلِيَ إمرتها مرتين، مات وهو والٍ على مصر في يوم الفطر سنة ٤٣هـ، ودُفِنَ بالمقطم. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٢٦٦، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٧٤٠، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (٥٨٨٢).

(٣) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري، قُتِل أبوه وعمه وأربعة من إخوته يوم أُحُد كفارًا، وقد شهد عثمان فتح مكة، وأعطاه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة، وتُوُفِّيَ في أول خلافة معاوية سنة ٤٢هـ، وقيل: إنه قُتل يوم أجنادين. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٥٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٧٣، وابن حجر: الإصابة ترجمة (٥٤٤١).

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤٤٦، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١.

أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا[(١)]»[(٢)].

ولما جلسوا إليه ﷺ ترك فيهم رسول الله ﷺ انطباعًا جميلاً لا يُنْسَى، وانظروا إلى كلمات خالد بن الوليد ﷺ وهو يصف هذه اللحظة الرائعة:

يقول خالد: فأُخْبِرَ بنا رسولُ الله ﷺ، فَسُرَّ بِنَا، فَلَبِسْتُ من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي[(٣)]؛ فقال: أسرعْ فإن رسول الله ﷺ قد أُخْبِرَ بك، فَسُرَّ بقدومك، وهو ينتظركم. فأسرعتُ المشي، فطلعتُ عليه، فما زال يتبسم إليَّ، حتى وقفتُ عليه، فسلَّمتُ عليه بالنبُوَّة، فقال: «الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَنْ لا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ». قلتُ: يا رسول الله، قد رأيتَ ما كنتُ أشهد من تلك المواطن[(٤)] عليك معاندًا عن الحقِّ، فادعُ الله أن يغفرها لي. فقال رسول الله ﷺ: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ». قلتُ: يا رسول الله على ذلك؟ قال: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ». قال خالد: وتقدَّم عثمان وعمرو، فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمتُ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه[(٥)].

(١) أفلاذ كبدها؛ أراد صميم قريش ولُبابَها وأشرافها.

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٦١٧، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٣٧، وابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥٣، والبيهقي: دلائل النبوة، ٤/ ٣٥١، وقال الألباني: وهذا إسناد صحيح. انظر: فقه السيرة، ص ٢٢٩.

(٣) الوليد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي، أُسر يوم بدر كافرًا، فلما افتُدِيَ أسلم؛ فقيل له: هلاَّ أسلمت قبل أن تُفتدَى وأنت مع المسلمين؟ فقال: كرهت أن تظنُّوا بي أني جزعت من الإسار. فحبسوه بمكة، فكان النبي ﷺ يدعو له في القنوت، ثم أفلت من إسارهم ولحق برسول الله ﷺ، وشهد عمرة القضاء. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١١٨، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٦٥٤، وابن حجر: الإصابة الترجمة (٩١٥٠).

(٤) أشهرها: أُحُد والأحزاب والحديبية.

(٥) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/ ١٩٠، وابن عساكر: تاريخ دمشق ١٦/ ٢٢٨، والبيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٣٥١، ٣٥٢، وابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥٣.

والموقف أروع من أي تعليق!

فهذا سرور، وهذا ابتسام، وهذا ثناء على خالد، وهذا دعاء بالمغفرة على كل ما كان منه، وهذا تقديم وتعظيم وتكريم لزعيم طالما حاربه، وقاد الجيوش ضده!

هذا هو سلوكه الراقي ﷺ، وهو سلوك ملازم له في كل أحواله؛ مهما كانت الظروف والملابسات.

بعد كل هذا الوفاء من رسول الله ﷺ، وبعد كل هذا الحرص على استمرار المعاهدة إلى المدَّة التي تمَّ الاتفاق عليها حدثت من جانب المشركين الجريمة الكبرى، والخيانة العظمى!

لقد خالفت بنو بكر -وهي القبيلة التي حالفت قريشًا بعد صلح الحديبية؛ ومن ثَمَّ تجري عليها أحكام الصلح كاملة- لقد خالفت الميثاق، ونقضت العهد، وقتلت رجالاً من قبيلة خزاعة -المتحالفة مع الرسول ﷺ- بل لم تكتفِ بهذا القتل، ولكن تتبَّعتهم إلى داخل الحرم المكي، واستمرَّت في عملية القتل هناك! ثم إن قريشًا لم تقف موقفًا محايدًا في القضية، ولكنها قامت بما هو أشنع من الحياد(١)، إذ أَمَدَّتْ بني بكر بالسلاح؛ بل وقاتلت معهم داخل الحرم(٢)!

فالجريمة مُرَكَّبة، والمخالفة عظيمة، فليس هذا قتيلاً واحدًا قد يُبَرَّرُ قتله أو يُعتَذَرُ عنه، إنما هم عدد كبير من القتلى، بلغ في بعض الروايات عشرين قتيلاً(٣)، ثم إن قريشًا شاركت في عملية القتل في تهوُّرٍ ليس له معنى أبدًا غير الكيد لحلفاء المسلمين، وفوق كل ذلك لقد لاذ رجال خزاعة بالحرم المكي الآمن، فاستمرَّت بنو

(١) كان يجب على قريش أن تقف في وجه حليفتها «بني بكر» لتُظهر حرصها على استمرار المعاهدة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٣٩٠، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣، ٤٤، وابن حجر: فتح الباري ٧/ ٥١٩، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٢٦-٥٣٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ١٣٤، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣/ ٣٢٤.

بكر -وقريش معها- في عملية القتل مخالفين بذلك كل الأعراف والقوانين.

إنها لجريمة شنيعة حقًّا!

واستنصرت خزاعة رسولَ الله ﷺ، وكان لا بُدَّ من موقف جريء عادل تجاه هذه القبيلة المظلومة، وكان لا بُدَّ من موقف حازم إزاء هذا النقض الصريح للمعاهدة؛ ومن ثَمَّ كان قرار رسول الله ﷺ بفتح مكة ونصرة خزاعة.

وليس هناك لوم من أي نوع على رسول الله ﷺ في هذا القرار الذي اتخذه؛ بل إن قريشًا نفسها لم تدَّعِ أبدًا أن رسول الله ﷺ قد خان العهد بقراره الذي اتخذه؛ لأنها تعلم أنها هي التي نقضت العهد وليس هو..

حتى بعد هذا القرار الذي اتخذه ﷺ لم يغدر بزعماء مكة مع سهولة أن يفعل ذلك، بل إن كبير مكة وزعيمها الأول أبا سفيان قد جاء إلى المدينة المنورة محاوِلاً أن يُطيل مدَّة العقد، ويخرج من هذه الأزمة، فوجدناه يتجوَّل في أنحاء المدينة المنورة، ويروح هنا وهناك، ويُخاطب هذا وذاك، يفعل كل ذلك وهو آمن لا يخشى على نفسه، ولا يخاف من أن يُقتل غيلة، أو يُتخذ رهينة، أو يُؤذى بشيء، مع العلم أنه قام بزيارته هذه إلى المدينة وحيدًا دون حماية من أهله، ولا حراسة من جنده!

إن الموقف عظيم فعلاً، وإنَّ الحدث جلل!

هل من الممكن أن يذهب زعيم دولة بنفسه إلى دولة بينها وبينه صراعات وحروب، ويتجوَّل هكذا بحرية في تلك الدولة، وهو آمن على نفسه وماله؟ وخاصة أن هذه الزيارة تأتي بعد نقض صريح للعهد مع الدولة التي يزورها؟!

هل يمكن أن يحدث ذلك في أي مكان في العالم؟!

إنه حدث في زمان رسولنا ﷺ!

بل إن قادة الإسلام كانوا حريصين على حماية أبي سفيان في بلدهم من مجرَّد الإيذاء المعنوي باللسان، وليس فقط الحماية من الإيذاء البدني؛ فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه الوزير الأول لرسول الله ﷺ، وأعظم شخصية في المدينة -بل وفي الإسلام- بعد نبي الله ﷺ، ها هو يقف مدافعًا عن أبي سفيان من أن يُصاب بسوءٍ بألسنة المسلمين، مع أن هؤلاء المسلمين عُذِّبوا وقُهروا على يد أبي سفيان وأتباعه قبل ذلك.. يروي عَائِذ بن عمرو(١) رضي الله عنه أَنَّ أَبا سفيان أتى على سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَالله مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا! فقال أبو بكر: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ(٢)؟!

إنَّ أبا بكر رضي الله عنه في هذا الموقف لم ينظر إلى ما لاقاه صهيب(٣) رضي الله عنه، ولا إلى ما لاقاه بلال(٤) رضي الله عنه من عذاب وقهر على يد المشركين في مكة، بل نظر إلى واجب الضيافة، ونظر إلى معاهدة الصلح التي بين الطرفين، ونظر إلى الرَّحِم التي بينهم.. نظر إلى كل ذلك، فكان هذا ردُّ فعله رضي الله عنه.

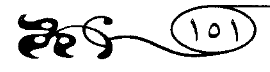
---

(١) هو عائذ بن عمرو بن هلال المزني: كان ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان من صالحي الصحابة. سكن البصرة وابتنى بها دارًا، وتوفي أيام يزيد بن معاوية. انظر: الاستيعاب ٢/ ٣٤٨، الإصابة الترجمة (٤٤٤٧).

(٢) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم (٢٥٠٤)، وأحمد (٢٠٦٥٩)، والنسائي (٨٢٧٧).

(٣) هو صهيب بن سنان الرومي، يُعرف بذلك لأنه أخذ لغة الروم إذ سَبَوْهُ وهو صغير، يُكَنَّى: أبا يحيى، كنَّاه بها رسول الله ﷺ، وهو من العرب من النمر بن قاسط، أسلم مبكرًا، وهاجر إلى المدينة بعد أن ترك ماله لقريش، وقد قال له رسول الله ﷺ في ذلك: «رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى». مات بالمدينة سنة ٣٨هـ، ودفن بالبقيع. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٨٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٣٣، وابن حجر: الإصابة، الترجمة (٤١٠٣).

(٤) بلال بن رباح، كان عبدًا في الجاهلية لأمية بن خلف، ثم أعتقه الصديق رضي الله عنه، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهو مؤذن رسول الله ﷺ، شهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وأُوذِي كثيرًا في مكة، وكان يُطاف به في شعاب مكة وهو يقول: «أحد أحد». مات بدمشق (٢٠هـ) وهو ابن ٦٣ سنة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٥٨، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٢٨٣، وابن حجر: الإصابة الترجمة (٧٣٢).



بين صلح الحديبية
ومعاهدة كامب ديفيد

عندما تمَّ توقيع معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩م بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس وزراء الكيان الصهيوني الغاصب مناحم بيجن انتصب بعض العلماء الموالين للسلطة ليدَّعوا أن هذه المعاهدة -التي لقيت معارضة وهجوم المصريين والمسلمين عمومًا وعلماء الإسلام بصفة خاصة- تُماثل صلح الحديبية في أنها كانت فتحًا في ثوبٍ من الغبن والحيف، وأن المسلمين سيستفيدون من كامب ديفيد كما استفاد الرسول ﷺ والمسلمون من صلح الحديبية؛ فهل الأمر كما صوَّرُوه فعلاً؟

الحقيقة أن هناك شبهًا كبيرًا وتماثلاً قد يصل إلى حدِّ التطابق بين صلح الحديبية ومعاهدة كامب ديفيد، ولكنه -للأسف- تشابه عكسي؛ إذ إن المسلمين في كامب ديفيد قاموا بدور المشركين في صلح الحديبية من الخسارة في نتائج المعاهدة؛ بينما جلس الصهاينة مكان الرسول ﷺ والمسلمين من حيث الفوز والظفر!

ولا عجب فيما أقول؛ فقد كان أول مكاسب صلح الحديبية للمسلمين هو اعتراف قريش بهم؛ ومن ثَمَّ اعتراف العرب جميعًا بدولة الإسلام في المدينة المنورة؛ فبعد سنوات طوال من العداوة والحرب على الإسلام من جهة قريش، وبعد سنوات من وَصْف المسلمين بالصابئة؛ ويقصدون بذلك أنهم خارجون على قريش؛ إذا بقريش تُوَقِّع على معاهدة تستمرُّ عشر سنوات مع هؤلاء الخارجين عليها؛ إذًا

فهي تعترف بدولتهم، وبقدرتهم على الوفاء بعهودهم، وتُقِرُّ بأن المواجهة معهم غير مضمونة العواقب؛ لذا فهي تَتَّقِي قوَّتهم وتلتقط أنفاسها بالصلح معهم.

وعلى النقيض من ذلك جاءت معاهدة كامب ديفيد؛ حيث كان الكيان الصهيوني منبوذًا منذ نشأته عام ١٩٤٨م، ولم يعترف به أيٌّ من الدول العربية رغم اعتراف دول الغرب به، ولكن جاءت كامب ديفيد لتمنح الاعتراف لأول مرَّة لهذا الكيان من دولة عربية مسلمة، وليست أية دولة بل الدولة العربية والإسلامية الكبرى، التي يرنو لها الجميع في العالم العربي ببصره، ويُتابع خطاها، ويقتدي بها، ولا يستطيع اتخاذ قرار الحرب فضلاً عن خوضها بالفعل من دونها؛ فهي صاحبة القوَّة العسكرية والبشرية الأولى في العالم العربي، وهي صاحبة الكفاح المرير المستمرّ ضدَّ الكيان الغاصب من نشأته؛ وذلك في حروب ١٩٤٨، و١٩٥٦، و١٩٦٧، و١٩٧٣.

من هنا جاءت كامب ديفيد مكسبًا عظيمًا في نتائجه للعدوِّ الصهيوني؛ إذ حصل على الاعتراف الذي توالى على مدار السنوات التالية جهرًا وخفية من الدول العربية؛ ومن ثَمَّ توطدت العلاقات الصهيونية التجارية والثقافة والسياسية مع بعض الأنظمة العربية وتابعيها، كما خرجت مصر من دائرة الصراع مع العدوِّ الصهيوني تمامًا، وصارت حدودها معه من أكثر حدود الكيان الغاصب أمنًا واستقرارًا.

وفي حين عاقب الرسول ﷺ قريشًا على نقضها للمعاهدة بهجومها المشترك مع حليفتها قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة حلفاء النبي ﷺ - عاقبها بفتح مكة؛ إذا نحن في معاهدة كامب ديفيد أمام وضع مختلف تمامًا؛ حيث يقوم الكيان الصهيوني بخرق المعاهدة يوميًّا باختراق الأراضي المصرية بطائراته، وبقصفها مرَّات عديدة، وقتل المصريين المجاورين للحدود من مدنيين وقوَّات شرطة أو حرس حدود؛ دون

أن تستطيع مصر الردَّ؛ فلماذا؟

لأن المعاهدة قسَّمت سيناء من الناحية الأمنية إلى ثلاث شرائح طولية؛ سُمِّيَتْ من الغرب إلى الشرق بالمناطق (أ)، (ب)، (ج).

- أما المنطقة (أ) فهي المنطقة المحصورة بين قناة السويس والخط (أ) بعرض قرابة ٥٠ كم، وفيها سُمح لمصر بفرقة مشاة ميكانيكية واحدة تتكوَّن من ٢٢ ألف جندي مشاة مصري مع تسليح يقتصر على ٢٣٠ دبابة و١٢٦ مدفعًا ميدانيًّا و١٢٦ مدفعًا مضادًّا للطائرات عيار ٣٧ مم و٤٨٠ مركبة.
- ثم المنطقة (ب) وعرضها ١٠٩ كم الواقعة شرق المنطقة (أ) وتقتصر على ٤ آلاف جندي من سلاح حرس الحدود مع أسلحة خفيفة.
- ثم المنطقة (ج) وعرضها بين ٢٠-٤٠ كم وتنحصر بين الحدود الدولية من الشرق والمنطقة (ب) من الغرب؛ ولا يُسمح فيها بأي تواجد للقوات المسلحة المصرية وتقتصر على قوات من الشرطة (البوليس)، كما يُحظَر إنشاء أي مطارات أو موانٍ عسكرية في كل سيناء.
- وفي مقابل هذه التدابير في مصر قيدت الاتفاقية الكيان الصهيوني فقط في المنطقة (د) التي تقع غرب الحدود الدولية وعرضها ٣ كم فقط، وحدد فيها عدد القوات بـ ٤ آلاف جندي.

أي أن جيش العدوِّ لو أراد اقتحام سيناء فلا يلزمه سوى عبور أربعة كيلومترات بينما يحتاج جيشنا إلى قطع قرابة ١٤٠ كيلومترًا ليصل إلى الحدود؛ فأي هوان وأية مذلَّة!

وما يُضاعف ذلك الهوان هو أنه مُؤَبَّد بنصِّ المعاهدة؛ ففي حين كان صلح الحديبية محدَّدًا بعشر سنوات؛ فإن معاهدة كامب ديفيد المذلَّة للمسلمين لا سقف

زمنيًّا لها؛ فهي إذًا قيدٌ في أعناقنا لا نستطيع منه فكاكًا، إلاَّ أن يغدروا هم، وإنهم فاعلون..

فإن اليهود لا يمكنهم أن يعقدوا عقدًا أو يُعاهدوا عهدًا إلاَّ وخانوه وغدروا بمحالفيهم؛ يقول تعالى: ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٠٠]، والقضية الكبرى هي أن نكون مستعدِّين ليوم يغدرون؛ حتى نفعل مثلما فعل رسول الله ﷺ وفتح مكة؛ فهل نحن مستعدُّون لفتح القدس؟!

* * *

المبحث الثالث

معاهداته ﷺ مع قبائل الجزيرة العربية الأخرى

لقد كان تعامل رسول الله ﷺ مع قريش في حال معاهدتهم أرقى من أن يُوصف، وأَجَلَّ من أن يُحاط بعظمته، ولم يكن ذلك بدافع الرَّحِم فقط، بل كان سلوكًا طبيعيًّا له ﷺ مع كل المعاهدين له، وقد فعل مثل هذا مع كلِّ القبائل التي عاهدته وأبى أن يُخالف عهدًا، أو أن ينقض ميثاقًا في أي لحظة من لحظات حياته.

لقد كان رسول الله ﷺ مطبِّقًا للإسلام في سلوكه هذا الذي وصفنا، وكان طائعًا لربِّه الذي أمره بحفظ العهود، واحترام المواثيق، ولم يكن هذا خاصًّا بمرحلة مُعَيَّنَة أو ظروف خاصَّة، إنما ظلَّ معه إلى آخر حياته، وها هي سورة التوبة تنزل في أخريات حياته ﷺ لتُعلن له ولكلِّ المسلمين؛ بل لكل العالمين، أن إتمام العهد إلى آخره شيمة كلِّ مسلم صادق..

يقول تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣، ٤].

هذا هو الدين الذي ندين به!

إنه أمر إلهي مباشر لنا ولعامَّة المسلمين أن نُتِمَّ العهود، وأن نوفي بالعقود، مع

أنها عُقِدَتْ مع مشركين ما زالوا يسجدون لأصنامهم، ويُشركون بربهم؛ لكنَّ هذا هو أمر الإله الذي يُشركون به.. ألا ما أعظمه من إله! وما أَجَلَّه من ربٍّ!

ويأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ أن يقرأ هذه الآيات على كل الحجيج بشتَّى طوائفهم، وذلك في العام التاسع من الهجرة[1]، وكان يحجُّ في هذا العام مسلمون ومشركون من شتَّى قبائل الجزيرة العربية..

إنه الإعلان العام الذي لا استثناء فيه، والحكم الثابت الذي لا نسخ له، والأمر الذي تواترت في آيات كثيرة، وفي أحاديث شتى:

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨، والمعارج: ٣٢].

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

والأمر أوسع من أن يُستَقْصَى، وأكبر من أن يُحْصَى!

هذا ديننا..

---

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة براءة التوبة (٤٣٧٩)، والنسائي (٣٩٤٩)، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٨٤.

وهذا رسولنا ﷺ..

وما أحسب أن هناك شرعًا ولا قانونًا في الأرض حضَّ أتباعه، وحثَّ مُطَبِّقيه على رعاية حقوق الآخرين كما فعل هذا الدين العظيم «الإسلام»، وكما أمر النبي الكريم رسول الله ﷺ..

قد قامت الحُجَّة وظهرت البيِّنَة..

ولا أفضل -ختامًا لهذا الكتاب- من آية من آيات قرآننا العظيم؛ تأمر رسول الله ﷺ والمسلمين أن يحكموا بين الناس بشرع الله تعالى، ولا يندفعوا وراء أحكام الناس وقوانينهم؛ فشتَّان بين حُكمٍ شَرَعَهُ وأحكمه وفصَّله ربُّ العالمين، وحكم آخر من أحكام البشر..

يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

***

الخاتمة

وبعدُ؛ فقد ادَّعى الكثيرون أنه لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، وأشاعوا أنه لا ينبغي أن يحكم السياسةَ شيءٌ لا من قواعد الدين أو الأخلاق، وأن السياسة لا تحكمها إلاَّ المصلحة دون التقيُّد بأيَّة مبادئ؛ لذا لا ينبغي إقحام الدين - الذي هو منبع الفضائل والقيم- في مجالات السياسة؛ التي تَتَّسم -لا محالة- بالنفاق والمداهنة وعدم الوفاء -كما زعموا-.

ولكن الحقيقة أن هذا الدين العظيم «الإسلام» حافل بالسياسة وأحكامها، وأن كتاب الله تعالى القرآن زاخر بالآيات التي تتناول الشئون السياسية، وأن رسول الله ﷺ قد مارس السياسة في جميع مراحل نبوته ﷺ: في علاقته بالمشركين في مكة، وفي علاقته بكافَّة أطياف مجتمع المدينة المنورة من الأنصار والمشركين واليهود، وتنظيم علاقة الأنصار بالمهاجرين، وعلاقتهما سويًّا بعناصر المجتمع الأخرى.

ومن عجيب الأمور أن الرسول ﷺ لم يُمارس السياسة فحسب، وإنما مارسها بأخلاق يصعب أن تجدها في التعاملات العادية للبشر؛ حتى لو كانت مع أرحامهم وذويهم؛ فما بالك لو كانت مع الأعداء!

والمشكلة الحقيقية أن مَنْ يَدَّعُون أن الدين ليس به سياسة لا يقرءون، ولو قرءوا فإنهم يحاولون تحريف ما يقرءونه؛ لكي ينفوا عن حياة الرسول ﷺ صفة العمل السياسي، وللأسف فإنَّ مَنْ لم يطَّلع على سيرة الرسول ﷺ من المسلمين يتمُّ خداعه بواسطة هؤلاء.

لذا فإن واجبنا -نحن المسلمين- أن نقرأ التاريخ والسيرة النبوية بوعي وإدراك؛ لنرى كيف كانت تصرُّفات الرسول ﷺ السياسية، وكيف كانت مبادئه ﷺ في التعامل مع الصديق والعدوِّ؛ المسلم والكافر، المحارب والمعاهِد، وسنجد العجب؛ سنجد قمَّة الرُّقِيِّ والسموِّ في النهج السياسي؛ سنجد الصدق الذي يفتقده الساسة المعاصرون، ويُنَظِّرون لوجوب غيابه عن الحياة السياسية. سنجد الأمانة في التعامل مع المعاهَد الذي هو عدوٌّ في الأصل، ولكنَّ المعاهدة تقتضي الأمانة وحفظ العهد والوفاء به.

وواجبنا الأسمى بعد هذا هو أن ننشر هذه الحقائق وذلك الرقي للعالم أجمع؛ لكي يفهم حقيقة السياسة في الإسلام، ولكي يُحاول إدراك مكانة الرسول ﷺ وأخلاقه، وأخيرًا لكي يُعلم أن الإسلام قادر على تطهير حياة البشر من جميع أدرانها، وأن يُقيم لهم حياة نظيفة سوية يسعدون بها.

إن هذه المهمَّة جزء من رسالتنا -نحن المسلمين- للعالم أجمع؛ فعلينا النهوض بها، والقيام بمسئوليتنا إنقاذًا للعالم من الظلم والفساد الذي يعيش فيه، وقبل ذلك إرضاء لله ﷻ، وقيامًا بواجب الأُمَّة المسلمة، الذي استحقَّت عليه الخيرية؛ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أ. د. راغب السرجاني

القاهرة في يناير ٢٠١٢م

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه

- ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي: **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.
- ابن المنذر النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم: **تفسير القرآن**، قدم له الأستاذ الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، حققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد، دار المآثر - المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
- أبو البركات النسفي: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.
- البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد: **تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
- الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق: **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م.
- حكمت بن بشير بن ياسين: **موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور**، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة - المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- سراج الدين، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني: **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.
- سيد قطب: **في ظلال القرآن**، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال: **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر - بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال: **لباب النقول في أسباب النزول**، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، تصحيح وضبط: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي- بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.

• الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: **أسباب نزول القرآن**، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.

ثالثًا: كتب السنن والآثار

• ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
• ابن حبان، أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
• ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني: **الأموال**، تحقيق: د. شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
• ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
• أبو بكر الشيباني، أبو بكر بن أبي عاصم أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد: **الآحاد والمثاني**، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ= ١٩٩١م.
• أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م.
• أبو نعيم الأصفهاني: **دلائل النبوة**، تحقيق: محمد رواس قلعة جي، وعبد البر عباس، دار النفائس - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
• أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي: **مسند أبي يعلى**، تحقيق: حسين

سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م.

- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: **المسند**، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: **فضائل الصحابة**، تحقيق: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي: **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي: **التاريخ الكبير**، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي: **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق: مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي: **الجامع الصحيح**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى،

١٤١١هـ = ١٩٩٠م.

- الحميدي، أبو بكر بن الزبير: **مسند الحميدي**، دار الفكر - بيروت.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبد الله: **مسند الشافعي**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **الروض الداني - المعجم الصغير**، تحقيق: محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي - بيروت، دار عمار - عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني: **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني: **الموطأ**، رواية يحيى الليثي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - مصر.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- النسائي، أحمد بن شعيب: **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

رابعًا: كتب التخريج ومصطلح الحديث وشروحه

- ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري: **البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**، تحقيق: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان**، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الضعيفة**، مكتبة المعارف - الرياض.

- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الترغيب والترهيب**، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الخامسة.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**، المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
- الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد: **نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي**، قدم للكتاب: محمد يوسف البَنُوري، صححه ووضع الحاشية: عبد العزيز الديوبندي الفنجاني، إلى كتاب الحج، ثم أكملها محمد يوسف الكاملفوري، تحقيق: محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر – بيروت، لبنان، ودار القبلة للثقافة الإسلامية– جدة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ=١٩٩٧م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني: **نيل الأوطار**، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.
- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين: **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ضبط وتصحيح: بكري حياني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي – القاهرة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

خامسًا: كتب الفقه وأصوله

- ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي: **المغني**، طبع إدارة المنار، لأصحابها ورثة السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة: **الخراج**، المطبعة السلفية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٥٢هـ.
- الكاساني، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الحنفي: **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، المطبعة الجمالية - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٧ = ١٣٢٨هـ.

سادسًا: كتب السيرة

- إبراهيم العلي: **صحيح السيرة النبوية**، دار القلم - دمشق.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي: **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**، صحّحه وعلق عليه: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي: **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا

وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ=١٩٥٥م.

- أكرم ضياء العمري: **السيرة النبوية الصحيحة**، مكتبة العبيكان - الرياض.
- الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن: **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس**، دار صادر - بيروت.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن: **الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام**، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
- الصالحي الشامي، محمد بن يوسف: **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري، أبو الربيع: **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء**، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- المباركفوري، صفي الرحمن: **الرحيق المختوم**، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- محمد الصادق عرجون: **محمد رسول الله**، دار القلم - دمشق.
- محمد الغزالي: **فقه السيرة**، خرج أحاديثه: الشيخ محمد ناصر الألباني، مكتبة الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
- محمد حميد الله: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة السابعة، ٢٠٠١م.
- محمود شيت خطاب: **الرسول القائد**، دار الفكر - بيروت، ٢٠٠٢م.

سابعًا: كتب التاريخ والتراجم

- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر - بيروت.
- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حزم، أبو محمد علي الأندلسي: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف - القاهرة.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع البصري الزهري: **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي: **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حَلَّهَا من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، تحقيق: علي شيري، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى،

١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **قصص الأنبياء**، دار الحديث - القاهرة.
- ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر: **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكني والأنساب**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي: **طبقات الفقهاء**، هذبه: محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.
- الباباني، إسماعيل باشا البغدادي: **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة بإستانبول، ١٩٥١م، وأعادت طبعه بالأوفست دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبان: **معجم الصحابة**، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **تجريد أسماء الصحابة**، دار المعرفة - بيروت، ١٩٦٠م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- الزركلي، خير الدين: **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، وصلة تاريخ الطبري، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي)، دار التراث - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.
- القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي: **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

ثامنًا: كتب اللغة والمعاجم والبلدان

- ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام: **كتاب الأمثال**، تحقيق: عبد المجيد قطامش، معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: **معجم البلدان**، دار الفكر - بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الزَّبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار ابن حزم - بيروت.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله: **المستقصى في أمثال**

العرب، دار الكتب العلمية - بيروت.

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.

تاسعًا: كتب عامة وفكر معاصر

- جمال عبد الهادي: **الطريق إلى بيت المقدس**، دار الوفاء، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.
- صالح بن عبد الرحمن الحصين: **العلاقات الدولية بين منهج الإسلام والمنهج الحضاري المعاصر**، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- عبد الله الشقاري: **اليهود في السنة المطهرة**، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧م.
- فاروق حمادة: **العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي**، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- مجموعة: **الموسوعة السياسية**، تحرير: د. عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.
- محمد سعدي: **مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام**، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.
- محمود شلتوت: **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق - القاهرة.
- ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.

عاشراً: الموسوعات والمجلات ومواقع الإنترنت

- مجلة الجامعة الإسلامية.
- الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الرقمي الإلكتروني - السعودية، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
- موقع مجلس الأمن الدولي: www.un.org.
- وكالة الأنباء السويسرية: www.swissinfo.ch.
- وكالة نبأ: www.islamicnews.net.

* * *

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات والمعارك

فهرس الاتفاقيات والمعاهدات

* * *

فهرس المحتويات

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني: وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأميركا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- عضو الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.

مشروعه الفكري:

ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

- استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
- بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
- تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

الإسهامات العلمية والدعوية:

على مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ

ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.

الفضائيات والإذاعات:

يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القيوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

التسجيلات:

له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.

الجوائز الحاصل عليها:

١- جائزة يوسف بن أحمد كانو للتفوق والإبداع في مجال الثقافة الإسلامية عام ٢٠١١م.

٢- جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.

٣- جائزة الدولة التقديرية (جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) عام ٢٠٠٩م.

٤- جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.

كتبه:

صَدَرَ للدكتور راغب السرجاني حتى الآن ٤٩ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

(١) المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب

(٢) أسوة للعالمين (من هو محمد ﷺ)

(٣) ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية

(٤) الرحمة في حياة الرسول ﷺ

(٥) فن التعامل النبوي مع غير المسلمين

(٦) قصة الأندلس من البداية إلى السقوط

(٧) قصة تونس من البداية إلى ثورة ٢٠١١م

(٨) قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(٩) الشيعة.. نضال أم ضلال؟!

(١٠) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت

(١١) قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
(١٢) العلم وبناء الأمم - دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
(١٣) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
(١٤) أخلاق الحروب في السنة النبوية
(١٥) قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
(١٦) فلسطين.. واجبات الأمة
(١٧) وشهد شاهد من أهلها
(١٨) رحماء بينهم - قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
(١٩) بين التاريخ والواقع - أربعة أجزاء
(٢٠) وخُلق الإنسان ضعيفًا
(٢١) نقطة ومن أول السطر
(٢٢) رمضان ونصر الأمة
(٢٣) أمة لن تموت
(٢٤) رسالة إلى شباب الأمة
(٢٥) كيف تحافظ على صلاة الفجر
(٢٦) كيف تحفظ القرآن الكريم
(٢٧) القراءة منهج حياة
(٢٨) المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
(٢٩) أخي الطبيب قاطع
(٣٠) أنت وفلسطين
(٣١) فلسطين لن تضيع.. كيف؟
(٣٢) لسنا في زمان أبرهة
(٣٣) إلا تنصروه ﷺ
(٣٤) التعذيب في سجون الحرية
(٣٥) رمضان وبناء الأمة
(٣٦) الحج ليس للحجاج فقط
(٣٧) من يشتري الجنة

(٣٨) أسلاك شائكة

(٣٩) الفتنة الطائفية في مصر.. الجذور.. الواقع.. المستقبل

(٤٠) كيف تختار رئيس الجمهورية

(٤١) رمضان الأخير

(٤٢) قصة أردوجان

(٤٣) مستقبل النصارى في الدولة الإسلامية

(٤٤) الحج والعمرة.. أحكام وخبرات

(٤٥) أنت والصومال

(٤٦) رسائل من قلب الحدث

(٤٧) قصة العلمانية

(٤٨) أجمل حوار.. حوار النبي ﷺ مع أصحابه ﵃

(٤٩) عندما عاهد الرسول ﷺ

❊ ❊ ❊



اشتر إصدارات المؤلف
عبر شركة أقلام

١) المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب: الحائز على جائزة يوسف بن أحمد كانو للتفوق والإبداع عام ٢٠١١م.
٢) أسوة للعالمين (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.
٣) (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة الدولة التقديرية (جائزة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) عام ٢٠٠٩م.
٤) قصة الأندلس من البداية إلى السقوط
٥) قصة تونس من البداية إلى ثورة ٢٠١١م
٦) قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ
٧) فن التعامل النبوي مع غير المسلمين
٨) الشيعة نضال أم ضلال؟!
٩) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
١٠) قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
١١) العلم وبناء الأمم.. دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
١٢) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
١٣) أخلاق الحروب في السنة النبوية
١٤) قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
١٥) فلسطين.. واجبات الأمة
١٦) وشهد شاهد من أهلها
١٧) رحماء بينهم.. قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٨) بين التاريخ والواقع – أربعة أجزاء
١٩) وخلق الإنسان ضعيفًا
٢٠) نقطة ومن أول السطر
٢١) رمضان ونصر الأمة


أقلام
AQLAM
نشر . توزيع . ترجمة (ش.م.م)
القاهرة: م: 01116500111
أو عبر موقعنا الإلكتروني
www.aqlamonline.net